مداواة النفوس

وتهذيب الأخلاق

لابن حزم

تحقيق

عبد الرحمن محمد عثمان

مداواة النفوس

و

تهذيب الأخلاق

لابن حزم

ضبط وتحقيق

عبد الرحمن محمد عثمان

الناشر

محمد عبد المحسن الكتبي

صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة

إلى الأخ الكريم

الشيخ علي عمري

أهدي هذه النسخة

اعزازا وتقديرا

عبد الرحمن عثمان

المؤلف ١٤٠٤

١٩٨٣/١٠/١-

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب ومؤلفه

صاحب كتاب مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، واحد من أشهر أئمة المسلمين ، ولد بقرطبة صبح آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤ في بيت علم وفضل ، وثراء وجاه . رأس أبوه الوزارة أيام الدولة العامرية في عهد المنصور محمد بن أبي عامر ثم أيام ابنه المظفر من بعده ، ورأس هو الوزارة أيام المستظهر بالله العامري ثم أيام المعتد بالله هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر . وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره استعفى ليتفرغ لعلوم الإسلام ، وأقبل على قراءة الفقه والحديث وكان من أول ماحفظ موطأ الإمام مالك بن أنس ، وتتابع منه إلى غيره حتى أوفى على الغاية من صحبة العلماء والسماع والاطلاع والحفظ .

وقد كان مال فى أول أمره إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى — رحمه الله — وتعصب له وأعرض عمن سواه حتى نسب إليه وشُهِرَ به وغبر على ذلك دهراً ، ثم عدل عنه إلى مذهب أهل الظاهر وتبع فى ذلك آراء الإمام داود بن على الظاهرى ، وظل يتوسع فيه ويجادل عنه ، ويسهب فى بسط أصوله ومسائله إلى أن لقى الله سبحانه .

وقد عِيبَ عليه — رحمه الله — الاندفاع فى خصومته والحدَّة فى تناول آراء ومذاهب وأشخاص خصومه من علماء عصره ، كما أُخِذَ عليه أيضاً شدته فى نقد الكثير من مسائل ومذاهب السابقين حتى قيل فيه : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » .

حمل ذلك أكثر علماء عصره على الطعن عليه والوقوع فيه وتحريض الملوك وذوى الرئاسات عليه فأقصوه وطاردوه خارج أوطانهم ، وهو مع ذلك ماض فى شأنه ، مسترسل فى طريقته

لا يكل ولا يلين .. عاملا بالعهد الذى أخذه الله تعالى على العلماء ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ لا يتلطف ولا يحيد ولا يجامل ولا يخاف فى الله ، ثم فيما يعتقده حقا ؛ خصومة خصم أو لومة لائم .

وكان رحمه الله ذا أسلوب وبلاغة وحجة ، يأخذه صدق المعتقد والحماس فلا يقوم له أحد . ولا يجرؤ عليه جرىء . بلغ من الفصاحة والبيان — خاصة فى مجالس العلم والدين — مبلغاً عجبا ، فما إن يحرك بالسؤال حتى يتفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء ، ولا يقصر عنه الرشاء .

قال فى ترجمته صاحب كتاب تاريخ آداب اللغة : «وبلغ من تفكيره أنه رغب عن زخارف الدنيا ، وبعد أن أدرك الوزارة تخلى عنها واشتغل بالتأليف فى الفقه والمنطق والتاريخ واللغة والأدب . وكان له علم فى كل فن حتى قيل إن مجلداته تشتمل على أربعمائة مجلد فى ثمانين ألف ورقة ، لا يزال كثير منها باقيا

وهاك أهمها : كتاب الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحَل وهو عبارة عن تاريخ انتقادى للمذاهب البشرية وفيه أبحاث فلسفية فى أصل العالم على رأى الطبيعيين ومذاهب النصارى المعروفة فى أيامه واليهود والصابئة والسامريين ونظر فى التوراة والإنجيل وتحريفهما وأفاض فى ذلك وفى الحواريين ، وذكر فرق الإسلام ومذاهبها وآراءها ، وبحث فى القرآن وإعجازه وفى القدر والتعديل وفصول فى الأنبياء من آدم واختص شيعة الخوارج والمعتزلة والمرجئة بفصول ضافية وبحث فى أشياء أخرى من قبيل فلسفة الوجود والطبيعيات فى ذلك العهد . الخ » .

كذلك من أشهر مصنفاته « المحلى » فى أحد عشر مجلداً و« جمهرة الأنساب » و« الناسخ والمنسوخ » و« الإحكام فى أصول الأحكام » فى ثمانى مجلدات و « إبطال القياس والرأى » و« المفاضلة بين الصحابة » و « طوق الحمامة » فى الأدب وسواها خلاف ما ذكرنا كثير . يذكر ابن قاضى شهبة فى كتابه « الإعلام بتاريخ الإسلام » من حوادث سنة ٤٥٦ وهى التى توفى ـ رحمه الله ـ فيها ؛ أن أكثر

كتب ابن حزم لم تخرج من بيته فى حياته لحنق الفقهاء عليه .

كذلك كان ابن حزم من أكثر علماء المسلمين تصنيفاً فى العصور الإسلامية بعد الإمام ابن جرير الطبرى . أما كتابه هذا « مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق » الذى هو بين أيدينا الآن . فيعد بحق خلاصةً لما وعاه الإنسان خلال العصور من حكمة الحياة وعِبَرِ الأيام ومواعظ الدهر .

وهو بما يشع من حلاوة معانيه وسلاسة ديباجته . وتقارب مقاطعه ؛ واضح ميسر يتميز أسلوبه بالصفاء والرقة ، وقد تومض من خلاله ومضات من الأسى ، سداها الإخلاص ، ولحمتها الصدق المحزون .

وإنه ليبدو لى أن ابن حزم كتب هذا الكتاب فى أخريات عمره ، بعد أن استخلص من تجاربه عبر الأيام وعظات الدهر ، وأطاف بروحه فى عوالم من الحكمة فعزفت نفسه عن الدنيا وتاقت إلى لقاء الله .

من هنا أطال ابن حزم الوقوف وأمعن النظر ، فى نفوس البشر ؛ راح يتغلغل ببصيرته فى خفاياها ، ويسرى بفكره فى ثناياها ، يدخل بحِسِّه من خالجة إلى خالجة ، ويخلص من كلِّ بظاهرة ونتيجة ، ويكشف من أعماقها عن داء ثم دواء . فيبدع لكلٍّ وصفاً ويوجزه ، وصفا أشبه بتعابير البرق فى لفظه ، وأشف من لون الماء فى بساطته .

ولقد كنت — علم الله — أتوق لنشر هذا الكتاب الصغير فى حجمه ، الكبير فى غاياته . منذ حوالى ثلاثين عاماً ؛ بعد أن قرأته مرة ومرة . . وبعد أن تخللت رقته حشاشة نفسى ومست سِمَتُه الحزينة شغاف قلبى . حتى لقد اتخذته بعضاً لنظام حياتى ؛ ولا أزعمنى استطعته . . إلا شيئاً يسيراً .

فلما حضر الموعد ؛ قيض الله لنشره أخانا الموفق الشيخ محمد عبد المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة جعلنا الله وإياه من المحسنين ، وغفر لنا وله ولمؤلفه الذنب يوم الدين .

ولقد اعتمدنا فى تحقيق هـذه الطبعة على ثلاث طبعات سابقة . أولاها طبعة الشيخ مصطفى القبانى الدمشقى سنة ١٣٢٣ هجرية ورمزنا لها بالرمز (ش) وجعلناها أساس طبعتنا . والثانية طبعة السيد محمد أدهم الكتبي بالحلوجى بمصر . ورمزنا لها بالرمز (هـ) . والثالثة طبعة السيد على محمود الحطاب الكتبى بشارع الميدان بالاسكندرية ورمزنا لها بالرمز (ح) . نسأل الله تعالى أن يلهمنا فى عملنا هذا الأجر والثواب ويرزقنا السداد إنه على ما يشاء قدير . هو مولانا ونعم النصير . وصلى الله على نبينا الكريم . محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؟

حلوان فى ٦ من المحرم ١٣٩٠ هـ عبد الرحمن محمد عثمان

١٤ / ٣ / ١٩٧٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ يسِّر يا كريمُ ﴾

قال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الأندلسى رحمه الله . الحمد لله على عظيم مننه ، وصلى الله على محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله ، وأبرأ إليه تعالى من الحول والقوة . وأستعينه على كل ما يعصم فى الدنيا من جميع المخاوف والمكاره . ويخلِّص فى الأخرى من كل هول ومضيق .

(أما بعد) فإنى جمعت فى كتابى هذا معانىَ كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى ، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحنى عز وجل من التهمم(١) بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله . حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التى تميل

---

(١) التهمم: التطلب — أى للعظات والعبر

إليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال ، وذممت كل ماسبرت[١] من ذلك ، بهذا الكتاب ، لينفع الله تعالى به من يشاء من عباده ، ممن يصل إليه ما أتعبت فيه نفسى وأجهدتها فيه ، وأطلت فيه فكرى فيأخذه عفواً ، وأهديته إليه هنيئاً ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعَقْدِ الأملاك ، إذا تدبره ويسَّره الله تعالى لاستعماله .

وأنا راج فى ذلك من الله تعالى أعظم الأجر ، لنيتى فى نفع عباده ، وإصلاح مافسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم ، وبالله تعالى أستعين .

(١) السبر : امتحان غور الجرح ، وشاع استعماله فى معنى الاختبار عامه .

فصل

(فى مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة)

لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده — أعظم من لذة الآكل بأكله ، والشارب بشربه ، والواطىء بوطئه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والآمر بأمره .

وبرهان ذلك . أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل ، واجدون لسائر اللذات التى سمينا كما يجدها المنهمك فيها . ويحسونها كما يحسها المقبل عليها . وإنما يحكم فى الشيئين من عرفهما . لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر .

إذا تعقبت[١] الأمور كلها فسدت عليك وانتهت فى أخذ

---

(١) تعقبت : أى طلبت عورتها وعثرتها .. فسدت عليك فآذاك عقباها ، وحل بك اليأس من جدواها وهو أقرب توجيه لصحة العبارة .

فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا ـ إلى أن الحقيقة إنما هى العمل للآخرة فقط. لأن كل أمل ظهرت[1] به فعقباه حزن. إما بذهابه عنك وإما بذهابك عنه؛ ولا بد من أحد هذين السبيلين، إلا العمل لله عز وجل، فعقباه على كل حال سرور فى عاجل وآجل.

أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس، وأنك معظَّم من الصديق والعدو. وأما فى الآجل فالجنة.

تطلبت غرضاً يستوى الناس كلهم فى استحسانه وفى طلبه فلم أجده، إلا واحداً وهو طرد الهم. فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى إستحسانه فقط، ولا فى طلبه فقط. ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ومراداتهم، لا يتحركون حركة أصلا، إلا فيما يرجون به طرد الهم. ولا ينطقون بكلمة أصلا، إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم. فمن مخطىء وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب، وهو الأقل.

(١) هى كذلك بالأصل ومعناها غير بين، والظاهر أنها مصحفة من قوله «ظفرت».

فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم ، إلى أن يتناهى عالم الابتداء ، ويعاقبه[١] عالم الحساب ، على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه .

وكل غرض غيره ، ففي الناس من لا يستحسنه إذ في الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق ، ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، وفي الناس من لا يريد المال ، ويؤثر عدمه على وجوده . كـكثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة[٢] .

وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها ، كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه . وفي الناس من

(١) أي يعقبه . وهي لغة فيه .

(٢) الزهد الممدوح هو زهد في الزيادة عن حد الكفاية أما زهد الزهاد والفلاسفة بالهيئة المبالغ فيها فلعمري لم يأت به شرع ولم يقره دين .

يؤثر الجهل على العلم ، كأكثر من نرى من العامة . وهذه هى أغراض الناس ، التى لا غرض لهم سواها .

وليس فى العالم مذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ، ولا يريد إلا طرحه عن نفسه .

فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هذا السر العجيب ، وأنار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم . بحثت عن سبيل موصلة — على الحقيقة — إلى طرد الهم ، الذى هو المطلوب النفيس ، الذى اتفق جميع أنواع الانسان ، الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ، على السعى له . فلم أجد إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة .

وإلا فإنما طلب المال طُلَّابه ، ليطردوا به هم الفقر عن أنفسهم . وإنما طلب الصوت (١) من طلبه ليطرد به عن نفسه

---

(١) فى القاموس : الصيت بالكسر الذكر الحسن والصوت فيه لغة .

هم الاستعلاء عليها . وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم قوتها (١) . وإنما طلب العلم من طلبه ؛ ليطرد به عن نفسه هم الجهل . وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ، ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ومغيب أحوال العالم عنه .

وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، وكنز من كنز ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع . ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم .

وكل ماذكرنا لمن تدبره هموم حادثة ، لابد لها من عوارض تعرض فى خلالها ، وتعذر مايتعذر منها ، وذهاب مايوجد منها ،

(١) هكذا وردت فى أصول الطبعات الثلاث التى رجعنا إليها وهى ط . القبانى الدمشقى ، ط . أدهم ، ط . الحطاب . . والمعنى بها غامض ولعل صحتها « فوتها » بالفاء لا بالقاف وبها يتضح المعنى ويستقيم السياق .

والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وأيضاً سؤشح (١) بالحصول على ماحصل عليه من ذلك ، من خوف منافس ، أو طعن حاسد ، واختلاس راغب أو اقتناء عدو ، مع الذم والإثم وغير ذلك .

ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب ، خالصا من كل كدر ، موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة . ووجدت العامل للاخرة إن امتُحِن بمكروه فى تلك السبيل ، لم يهتم بل يسر . اذ رجاؤه فى عاقبة ماينال ، به عون على مايطلب ، وزايد فى الغرض الذى يقصد . ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق . لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذاً بذلك ، فهو غير مؤثر فى ما يطلب .

(١) كذا جاءت فى أصول الطبعات المختلفة . والعبارة على حالها غامضة مبهمة . والظاهر أنه وقع بها تصحيف . ولعل المعنى المقصود منها سوء الشح وهو سوء الحرص المذموم على مافى اليد من متاع وغيره مما تتطلبه شهوات النفس والأثرة . وضده الإيثار .

ورأيته : إن قصد بالأذى سُرّ ، وإن نكَبته نكبة سُرّ . وإن تعب فيما سلك فيه سُرّ . فهو فى سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا .

فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم . وليس إليه إلا طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى . فما عدا هذا فضلال وسخف.

لاتبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها . وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل . فى دعاء إلى الحق ، وفى حماية الحريم . وفى دفع هوان ، لم يوجبه[1] عليك خالقك تعالى ، وفى نصر مظلوم .

وباذل نفسه فى غرض دنيا ، كبائع الياقوت بالحصا . لامروءة لمن لا دين له . العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة .

لإبليس فى ذم الرياء حبالة ، وذلك أنه : رب ممتنع من فعل الخير خوف أن يُظَنَّ به الرياء .

---

(١) أى لم يوجب عليك احتماله لتؤجر به والحال أنه ليس فى احتماله والصبر عليه أجر .

﴿ باب عظيم من أبواب العقل والراحة ﴾

وهو طرح المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل . بل هو العقل كله والراحة كلها . من قدَر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق ؛ وإن آلمته فى أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه ، أشـــد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . لأن مدحهم إياه إن كان بحق ، وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العُجْبَ فأفسد بذلك فضائله . وإن كان بباطل فبلغه فسُرَّ فقد صار مسروراً بالـكذب . وهذا نقص شديد . وأما ذم الناس إياه ، فإن بحق فبلغه ؛ فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه الا ناقص . وإن كان بباطل فصَبَرَ . اكتسب فضلا زائداً بالحلم والصبر ، وكان مع ذلك غانماً . لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل ، فيحظى بها فى دار الجزاء ، أحوج ما يكون إلى المنجاة بأعمـال

لم يتعب فيها ولا تكلفها . وهذا حظ رفيع لا يزهد فيه إلا مجنون .

وأما إن لم يبلغه مدح الناس إياه ، فكلامهم وسكوتهم سواء . وليس كذلك ذمهم إياه ، لأنه غانم للأجر على كل حال ، بلغه ذمهم أو لم يبلغه .

ولولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثناء الحسن : « ذلك عاجل بشرى المؤمن » لوجب أن يرغب العاقل فى الذم بالباطل ، أكثر من رغبته فى المدح بالحق ، ولكن إذا جاء هذا القول ، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل ، فإنما تجب البشرى بما فى المدح لا بنفس المدح .

ليس بين الفضائل والرذائل ، والطاعات والمعاصى ، إلاّ نفار النفس وأنسها فقط . فالسعيد من أَنِسَت نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصى . والشقى من أَنِسَت نفسه بالرذائل والمعاصى ونفرت من الفضائل والطاعات . وليس

هاهنا إلاّ صُنعُ الله تعالى وحفظُه .

طالب الآخرة متشبه بالملائكة . وطالب الشر متشبه بالشياطين . وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم . وطالب المال لِعَيْنِ المال لا لنفقته فى الواجبات والنوافل المحمودة ، أسقط وأذل من أن يكون له فى شىء من الحيوان شبه . ولكنه يشبه العذرات فى الكهوف فى المواضع الوعرة ، لا ينتفع بها شىء من الحيوان .

العاقل لايغتبط بصفة يفوقه فيها سَبُعٌ أو بهيمة أو جماد . وإنما يغتبط بتقدمه فى الفضيلة التى أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهى التمييز الذى يشارك فيه الملائكة . فمن سُرَّ بشجاعته التى يضعها فى غير موضعها لله تعالى . فليعلم أن النمر أجرأ منه . وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه . ومن سُرَّ بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسما . ومن سُرَّ بحمله الأثقال فليعلم أن الحمار أحمل منه . ومن سُرَّ بسرعة عدوه . فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدواً منه .

ومن سُرَّ بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه . وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته . فأى فخر وأى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه ، لكن من قَوِىَ تمييزُه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك . فإنه لا يتقدمه فى هذه الوجوه الا الملائكة وخيار الناس .

قول الله تعالى ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾ جامع لكل فضيلة لأن نهى النفس عن الهوى ، هو ردعها عن الطبع الغضبى وعن الطبع الشهوانى ، لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى . فلم يبق إلا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها ، الذى به بانت عن البهائم والحشرات والسباع .

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للذى استوصاه «لا تغضب» وأمره عليه السلام «أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه» جامعان لكل فضيلة . لأن فى نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها ، وفى أمره عليه السلام أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، ردع النفس عن القوة الشهوانية ، وجَمَعَ لازمهُ العدل الذى هو فائدة النطق . الموضوع فى النفس الجامدة .

فصل فى العلم

لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويحبونك ، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك . لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه . فكيف بسائر فضائله فى الدنيا والآخرة . ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ، ويغبطه نظراؤه من الجهال ؛ لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه . فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة .

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية . ومطارح [1] الآمال التى لاتفيد غير الهم ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس ، لكان ذلك أعظم داع إليه . فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره .

(١) غاياتها ومواقعها .

ومن أقلها ماذكرناه مما عليه طالب العلم . وفى مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والأغانى وركض الدواب فى طلب الصيد وسائر الفضول (١) التى تعود بالمضرة فى الدنيا والآخرة .

لو تدبر العالم فى مرور ساعاته ، ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال ، ومن الهم بمغيب الحقائق عنه ، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية عن غيره ، لزاد حمداً لله عز وجل ، وغبطة بما لديه من العلم ، ورغبة فى المزيد منه .

من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه . كان كزارع الذرة فى الأرض التى يجود فيها البُر ، وكغارس الشَّعْراء (٢) حيث يزكو النخل والزيتون .

نشر العلم عند من ليس من أهله مفسدٌ لهم ، كإطعامك

(١) دواعى اللهو وشهوات النفس .
(٢) شجرة الحمض .

العسل والحلواء من به احتراق وحمى ، وكتشميمك المسك لمن به صداع من احتدام الصفراء . الباخل بالعلم ألوَمُ[١] من الباخل بالمال ، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده ، والباخل بالعلم بَخَل بما لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل)

من مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه . فيكون كغارس النارجيل بالأندلس وكغارس الزيتون بالهند ؛ وكل ذلك لا ينجب . أجلُّ العلوم ماقربك إلى خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه . انظر فى المال والصحة إلى من دونك . وانظر فى الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك . العلوم الغامضة كالدواء القوى ؛ يصلح الأجساد القوية ويهلك الأجساد الضعيفة . وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوى جودة وتصفيه من كل آفة . وتهلك ذا العقل الضعيف .

(١) أى أحق باللوم .

من الغوص على الجنون ما لو غاصه صاحبه على العقل ، لكان أحكم من الحسن البصرى وأفلاطون الأثينى وبزرجمهر الفارسى . وقف العقل عند أنه لا ينفع إن لم يُؤَيد بتوفيق فى الدين أو يسعد فى الدنيا . وقف العلم عند الجهل بصفات البارى عز وجل .

لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ، ويفسدون ويظنون أنهم يصلحون . من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة ، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها ، فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه . أعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين .

غاظنى أهل الجهل مرتين من عمرى :

إحداهما — بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلى .

والثانية — بسكوتهم عن الكلام بحضرتى فهم أبداً

ساكتون عما ينفعهم ، ناطقون فيما يضرهم . وسرنى أهل العلم مرتين من عمرى :

إحداها — بتعليمى أيام جهلى .

والثانية — بمذاكرتى أيام علمى .

من فضل العلم والزهد فى الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما ومستحقهما . ومن نقص أحوال الدنيا من المال والصوت أن أكثر ما يقعان ففى غير أهلهما وفيمن لا يستحقهما .
من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها ولم يرافق فى تلك الطريق إلا أكرم صديق ؛ أهلَ المواساة والبر ، والصدق وكرم العشيرة والصبر والوفاء ، والأمانة والحلم ، وصفاء الضمائر وصحة المودة ، ومن طلب الجاه والمال واللذات ، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكَلِبة والثعالب الخَلِبة ، ولم يرافق فى تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد خبيث الطبيعة .

منفعة العلم فى استعمال الفضائل عظيمة ، وهو أنه يعلم حسن

الفضائل فيأتيها ولو فى الندرة ، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو فى الندرة ، ويستمع الثناء الحسن فيرغب فى مثله ، والثناء الردىء فينفر منه . فعلى هذه المقدمات وجب أن يكون للعلم حصة فى كل فضيلة . وللجهل حصة فى كل رذيلة . ولا يأتى الفضائل من[1] لم يتعلم ، إلا صافى الطبع جداً فاضل التركيب . وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام ، لأن الله علمهم الخير كله دون أن يتعلموه الناس .

---

(١) الظاهر أنها « ممن » .

فصل
فى الأخلاق والسير

احرص على أن توصف بسلامة الجانب . وتحفّظ من أن توصف بالدهاء ؛ فيكثر المتحفظون منك . حتى ربما أضر ذلك بك وربما قتلك .

وَطِّن نفسك على ما تكره ، يقل همك إذا أتاك ، ولم تستضر بتوطينك أولا . ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب ، مما لم تكن قدَّرته . إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها . الغادر يفى بالمحدود[1] . والوفى يغدر بالمحدود . والسعيد كل السعيد فى دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان.

---

(١) أى قد يقع الوفاء فى القليل ممن طبيعته الغدر ، وقد يقع الخلف فى القليل ممن طبيعته الوفاء برغمه . وأى الرجال المهذب .

لاتفكر فيمن يؤذيك فإنك إن كنت مقبلا فهو هالك ، وسعدك يكفيك . وإن كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك .

طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثرَ مما يعلم الناس منها .

والصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام : فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه ، وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك ، وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك . فالأول — ذل ومهانة ، وليس من الفضائل . والرأى لمن خشى ما هو أشد مما يصبر عليه ؛ المتاركة والمباعدة . والثانى — فضل وبر ، وهو الحلم على الحقيقة ، وهو الذى يوصف به الفضلاء . والثالث — ينقسم قسمين : إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلط ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه . فالصبر عليه أفضل وفرض ، هو حلم على الحقيقة . وأما من كان لايدرى مقدار نفسه ، ويظن أن لها حقاً يستطيل به فلا يندم على ما سلف منه ، فالصبر عليه ذل للصابر ، وإفساد للمصبور عليه . لأنه يزيد استشراء ،

والمعارضة له سخف ، والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن يُنْـتَصَرَ منه ، وأنه إنما ترك ذلك استرذالا له فقط ، وصيانة عن مراجعته ولا يزاد على ذلك . وأما جواب السفلة فليس جوابه إلا النكال وحده .

من جالس الناس لم يعدم هما يؤلم نفسه ، وإنما يندم عليه فى معاده ، وغيظاً ينضج كبده، وذلا ينكس همته . فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم . والعز والراحة والسرور والسلامة فى الانفراد عنهم ، ولـكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ولا تخالطها . لا تحضر(١) شيئاً من عملٍ غد ، لأن تخففه بأن تعجله اليوم . فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها ، وربما أعجز أمرها فبطل الـكل . ولا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث ، أن تعجله الآن وإن قل ، فإنه يحط عنك كثيراً لو اجتمع لقذف بك فى النار . الوجع والفقر والنكبة والخوف ، لا يحس أذاها

(١) هى كذلك بالأصل والظاهر أن المقصود : لاتؤخر . .

إلا من كان فيها ، ولا يعلمه من كان خارجا عنها . وفساد الرأى والعار والإثم لا يعلم قبحها إلا من كان خارجا عنها ، وليس يراه من كان داخلا فيها . الأمن والصحة والغنى لا يعرف حقها إلا من كان خارجا عنها وليس يعرف حقها من كان فيها . وجودة الرأى والفضائل وعمل الآخرة لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها ، ولا يعرفه من لم يكن منها .

أول من يزهد فى الغادر من غـدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية فى عينه الذى يزنى بهـا . ما رأينا شيئاً فسد فعاد إلى صحة إلا بعد اللتىّ ، فكيف بدماغ يتوالى عليه فساد السكْر كل ليلة . وإن عقلا زَيَّنَ لصاحبه تعجيل إفساده كل ليلة ، لعقل ينبغى أن يتَّهَمَ .

قد ينحس العاقل بتدبيره ولا يجوز أن يسعد الأحمق بتدبيره . لا شىء أضر على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه ، فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه ، فإن لم يفعل شغلوه بما يظلمونه

فيه . مُقرِّب أعدائه قاتل نفسه .

التهويل بلزوم زى ما ، والاكفهرار وقلة الانبساط ، ستائر جعلها الجهال الذين مكنتهم الدنيا أمام جهلهم .

ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك . ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك ؛ من استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شىء تشفق عليه .

وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم . وعلة ذلك طبيعة فى البشر . إنما تأنس النفس بالنفس ، فأما الجسد فمستثقل مبروم به . ودليل ذلك استعجال المرء بدفن حبيبه إذا فارقته نفسه وأسفه لذهاب النفس وإن كانت الجثة حاضرة بين يديه . لم أر لإبليس أصيد من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته .

إحداهما — اعتذار من أساء بأن فلانا أساء قبله .

والثانية — استسهال الإنسان أن يسىء اليوم لأنه قد أساء أمس .

بذل الواجبات فرض . وبذل مافضل عن القوت جود . والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عُدْمه فضل . ومنع الواجبات حرام . ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح . والمنع من الإيثار ببعض القوت جشع . ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نتن ورذالة ومعصية . والسخاء بما ظَلَمْتَ فيه ، أو أخذته بغير حقه ظلم مكرر . والذم جزاء ذلك لا الحمد ، لأنك إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك . وإعطاء الناس حقوقهم مما عندك ليس جوداً ولكنه حق .

حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين أو الحريم ، أو عن الجار المضطهد وعن المستجير المظلوم وعن الهضيمة ظلماً فى المال والعرض ، وسائر سبيل الحق ، سواء قل من يعارض أو كثر . والصبر عما ذكرنا جبن وخور . وبذلها فى عروض الدنيا تهور وحمق . وأحمق من ذلك من بذلها فى المنع من الحقوق والواجبات قِبلك أو قِبل غيرك . وأحمق من هؤلاء كلهم ، قوم شاهدتهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم ،

فتارة يقاتلون زيدا عن عمرو ، وتارة يقاتلون عمرا عن زيد ، ولعل ذلك يكون فى يوم واحد . فيتعرضون للمهالك بلا معنى . فينقلبون إلى النار أو يفرون إلى العار . وقد أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « يأتى على الناس زمان لا يدرى القاتل فيم قَتل ، ولا المقتول فيم قُتل » .

حد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك ، فما عدا هذا فهو عُهْر . وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى ، فهو ضعف وعجز . حد العدل أن تعطى من نفسك الواجب وتأخذه . وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه . وحد الكرم أن تعطى من نفسك الحق طائعاً وتتجافى عن حقك لغيرك قادرا . فالفضل أعم والجود أخص إذ الحلم فضل ، وليس جودا . والفضل فرض زدت عليه نافلة .

إهمال ساعة يفسد رياضة سنة . خطأ الواحد خير فى تدبير

الأمور من صواب الجماعة التى لايجمعها واحد[١] . لأن خطأ الواحد فى ذلك يستدرك وصواب الجماعة يضرى على استدامة الإهمال وفى ذلك الهلاك . سوء الظن يعده قوم عيبا على الإطلاق، وليس كذلك إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لا يحل فى الديانة أو إلى مايقبح فى المعاملة . وإلا فهو حزم والحزم فضيلة .

عيب بعضهم بإتلاف ماله فقال[٢] : إنى لا أضيع منه إلا

---

(١) فى قريب من ذلك يقول الشاعر :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غوايتهم وإنى غير مهتد

(٢) وفى مثل ذلك يقول الشاعر القديم :

يعاتبنى فى الدين قومى وإنما ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سداً
وفى جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحماً مدفقة ثرداً
وفى فرس نهد عتيق جعلته حجاباً لبيتى ثم أخدمته عبدا
وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

ما كان فى حفظه نقص دينى ، أو إخلاق عرضى ، أو إتعاب نفسى . فإنى أرى الذى أحفظ من هذه الثلاثة وإن قل ، أجل فى العوض مما يضيع من مالى. ولو أنه كل ماذرّت[1] عليه الشمس .

أفضل نعم الله على العبد ، أن يطبعه على العدل وحبه ، وعلى الحق وإيثاره . من عيب حب الذكر أنه يحبط الأعمال ، إذا أحب عاملها أن يذكر بها ، وكاد يكون شركا لأنه يعمل لغير الله تعالى . وهو يطمس الفضائل ، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير ، لكن ليذكر به .

أبلغ فى ذمك من مدحك بما ليس فيك ، لأنه نبه على

= وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيى هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بى ... زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالى إن تتابع لى غنى ... وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا
وإنى لعبد الضيف ما دام نازلا ... وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

(١) ذرت أى طلعت .

نقصك . وأبلغ فى مدحك من ذمك بما ليس فيك ، لأنه نبه على فضلك ، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك ، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة . لو علم الناقص نقصه لـكان كاملا .

لا يخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلت عيوبه ودُفنت .

أكثر ما يكون ما لم تظن ، فالحزم هو التأهب لما يظن . فسبحان من رتب ذلك ليرى الإنسان عجزه وافتقاره إلى خالقه عز وجل .

فصل

فى الإخوان والصداقة والنصيحة

استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بشأنك ، العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فإما تصفو وإما تطير . من طوى من إخوانك سره الذى يعنيك دونك ، أخْوَنُ لك ممن أفشى سِرَّك . لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط ، ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك . لا ترغب فيمن يزهد فيك ، فتحصل على الخيبة والخزى . لا تزهد فيمن يرغب فيك ، فإنه باب من أبواب الظلم ، وترك مقارضة الإحسان وهذا قبيح .

من امتُحِنَ بأن يخالط الناس فلا يُلْقِ تَوَهُّمَهُ كله إلى من صحب . ولا يَبْنِ منه إلا على أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه ، وسوء معاملتهم ، مثل مايترقب من العدو المكاشف . فإن سلم من ذلك فلله الحمد . وإن كانت الأخرى أُلْفِيَ متأهباً ولم يَمُتْ هما ولا

يستعمل مع ذلك سوء المعاملة . فيُلْحَق بذوى الشرارة[١] من الناس وأهل الخب منهم . ولكن هاهنا طريق وعرة المسلك ، شاقة المتكلف ، يحتاج سالكها إلى أن يكون أهدى من القطا ، واحذر من العقعق ، حتى يفارق الناس راحلا إلى ربه تعالى . وهى طريق الفوز فى الدين والدنيا ، وهى أن تكتم سر كل من دونك ، وأن لا تُفْشِىَ إلى أحدٍ من إخوانك ولا من غيرهم مايمكنك طيه[٢] بوجه ما من الوجوه وإن كان أخص الناس

---

(١) أى الشر والغدر .

(٢) وهذا من أخلاق الحكماء الذى فى مثله يقول :

ولست بمبـد للرجال سريرتى   ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

فى قصيدة من أروع ماقيل من يتيم الشعر والحكمة منها :

لقـد ظلمتنى أم قيس تلومنى   وما لوم مثلى باطلا بجميـل

تقول ألا يا استبق نفسك لاتكن   تساق لغبراء المقام دحـول

ألم تعلمى ألا يراخى منيتى   قعودى ولا يدنى الحمام رحيلى

فإنك واللـوم الذى ترجعينه   علىّ وما عـذالة بعقـول

وذى ندب دامى الأظل قسمته   محافظة بينى وبين زميـلى =

بك . وأن تفى لجميع من ائتمنك . ولا تأمن أحداً على شيء من أمرك تشفق عليه ، إلا لضرورة لا بد منها . فارتد حينئذ واجتهد وعلى الله الكفاية . وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه ، وإن لم

وزاد رفعت الكف عنه عفافة   لأوثر فى زادى علىّ أكيلى
ومنشق أعطاف القميص دعوته   وقد سد جوز الليل كل سبيل
فقلت له قد طال نومك فارتحل   وما ذاق طعم النوم غير قليل
سحيراً وأعجاز النجوم كأنها   صوار تدلى من سواء أميل
وقد شالت الجوزاء حتى كأنها   فساطيط ركب بالفلاة نزول

* * *

ومن لا ينل حتى يسد خلاله   يجد شهوات النفس غير قليل
وعوراء قد قيلت فلم استمع لها   وما الكلم والعوراء لى بقبول
وما أنا للشيء الذى ليس نافعى   ويغضب منه صاحبى بقؤول
وأعرض عن مولاى إن شئت سبنى   وما كل يوم حلمه بأصيل
ولم يلبث الجهال أن يتهضموا   أخا الحلم مالم يستعن بجهول
ولست بمبد للرجال سريرتى   ولا أنا عن أسرارهم بسئول
ولا أنا يوما للحديث سمعته   إلى ها هنا من ها هنا بنقول

إلى آخر القصيدة . . .

يعمدك بالرغبة ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل . ولا تَبْنِ إلا على أن أول من أحسنت إليه أول مُضِرّ بك وساع عليك . فإن ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون — لشَدة الحسد — كل من أحسن إليهم إذا رأوه فى أعلى من أحوالهم .

وعامل كل أحد فى الإنس أحسن معاملة ، وأضمِرْ السُّلُوَّ عنـــه إن فلت[(١)] ببعض الأوقات التى تأتى مع مرور الأيام والليالى ، تعش سالماً مستريحاً . لاتنصح على شروط القبول .

---

(١) هى كذلك بالأصل — وتوجيه العبارة غير ظاهر . فأما إن كان الفعل من فل يفل فلا أى انهزم وخاب — ويقال فيه : رجل فل وقوم فل يستوى فيه المفرد والجمع — وألحقت بثلاثيه تاء التأنيث جاز أن تكون عائدة على « المعاملة » الحسنة وحينئذ يكون المعنى إن باءت بالخيبة ورجعت عليك ببعض الآفات التى تأتى مع مرور الأيام والليالى . .

وأما إن كان من فلت يفلت فلتاً بمعنى تخلص أى من معروفك =

ولا تشفع على شرط الإجابة . ولا تهب على شرط الإثابة . لكن على سبيل استعمال الفضل ، وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف(١) .

وحد الصداقة الذى يدور على طرفى محدوده هو أن يكون المرء يسوءه ما ساء الآخر ويسره ما سره . فما سفل عن هذا فليس صديقاً . ومن حمل هذه الصفة فهو صديق فيما نصح فيه . وكل ناصح صديق . وليس كل صديق ناصحا .

= وتمكر له جاز أن يرجع الضمير إلى « أحد » وحينئذ يجوز أن يقرأ بضم الفاء وكسر اللام . ومع كل فإن بالعبارة شيئا من غموض أو تصحيف . خاصة فى قوله ببعض الأوقات ، فالظاهر أنها أيضا ببعض الآفات بشاهد أن ما بعدها يكاد أن يكون تكراراً لها .

(١) ونظير ذلك قوله

ولم أر كالمعروف أما مذاقه ... فحلو وأما طعمه فجميل

وقول الأول

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ماضر الآخر ، ساء ذلك الآخَر أم سَرَّه . وأن يَسُرَّهُ ما نفعه ، سر الآخَر أم ساءه . فهذا شرط فى النصيحة زائد على شروط الصداقة . وأقصى غايات الصداقة التى لامزيد عليها ، من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك .

ليس شىء من الفضائل أشبه بالرذائل ، من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء ، فإن ذلك فضيلة تامة متركبة ، لأنهم لا يُكتسبون إلا بالحلم والجود ، والصبر والوفاء ، والاستضلاع والمشاركة ، والعفة وحسن الدفاع وتعلم العلم ، وبكل حالة محمودة ولسنا نعنى الأتباع أيام الخدمة ، لانحرافهم عند انحراف الدنيا ، والمصادقين لبعض الأطماع . ولا المتنادمين على الخمر ، والمجتمعين على المعاصى والقبائح ونيل أعراض الناس والفضول ، وما لا فائدة فيه ، فليس هؤلاء أصدقاء ، لنيل بعضهم من بعض ، وانحرافهم عند فقد تلك الرذائل التى

جمعتهم . وإنما نعنى إخوان الصفاء لغير معنى إلا لله عز وجل . وإذا حصلت عيوب الاستكثار ، منهم وما يلزمك من الحق لهم ، عند نكبة تعرض ، إما بموت أو بغرة أو فراق ، أو غدر من يغدر منهم كان السرور بهم ، لا يفى بالحزن الممض[١] من أجلهم . وليس فى الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح ، فإنه فى الوجه سخف ممن يرضى به ، إلا أنه قد ينتفع به فى الإقصار عن الشر ، والتزيد من الخير ، وفى أن يرغب فى ذلك الخلق الممدوح من سمعه . بعض أنواع النصيحة يُشكَل أمرُه من النميمة ، لأن من سمع إنسانا يذم آخر ظالما له ، أو يكيده فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد . كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ثم إن أعلمه بذلك كان قد ولَّد على الذام والكائد ، مالم يبلغا استحقاقه بعد من الأذى فيكون ظالما له . وليس من الحق أن يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه . فالعاقل فى مثل هذا يحفظ المقول فيه من القائل ، دون أن يبلغه ماقال ،

---

(١) أى المؤلم الموجع .

لئلا يقع فى الاسترسال إليه فيهلك . وأما فى الكيد فيحفظه[1] من الوجه الذى يُكاد منه بألطف ما يقدر فى الكتمان على الكائد وأبلغ ما يقدر فى تحفيظ[1] الكيد ولا يزد على هذا شيئا . وأما النميمة فهى التبليغ لما سمع مما لاضرر فيه على المبلغ إليه .

النصيحة مرتان فأولا فرض وديانة ، والثانية تنبيه وتذكير ، والثالثة توبيخ وتقريع ، وليس وراء ذلك إلا التركل واللطام . وربما أشد من ذلك من البغى والأذى . اللهم إلا فى معانى الديانة فواجب على المرء ترداد النصح رضى المنصوح أو سخط . تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ . إذا نصحت فانصح سرا لاجهرا أو بتعريض لاتصريح ، إلا أن لايفهم المنصوح تعريضك فلا بد من التصريح . ولا تنصح على شرط القبول منك . فإن تعديت هذه الوجوه ، فأنت ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك

---

(١) هى كذلك بالأصل ولعل المراد يحفظه فى نفس عدوه بمداراته ويجوز أن يكون مصحفه من « التخفيف » أو « التخفيض » اتقاء لشر الكائد .

لامؤد حق ديانة وأخوة . وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ولكن حكم الأمير مع رعيته ، والسيد مع عبيده . لا تكلف صديقك إلا مثل ماتبذل له من نفسك . فإن طلبت أكثر فأنت ظالم . ولا تكسب إلا على شرط الفقد ، ولا تتول إلا على شرط العزل . وإلا فأنت مضر بنفسك خبيث السيرة . مسامحة أهل الاستئثار والاستنعام ، والتغافل لهم، ليس مروءة ولافضيلة . بل مهانة وضعف وتضرية[1] لهم على التمادى على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به وعون لهم على فعل ذلك السوء . وإنما تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف ، المبادرين إلى المسامحة والإيثار . فهؤلاء على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك ، لاسيما إن كانت حاجتهم أمَسَّ وضرورتهم أشد .

فإن قال قائل : فإذا كان كلامك هذا موجباً لإسقاط

---

(١) وفى ذلك يقول الشاعر :

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان
وفى الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

المسامحة والتغافل للاخوان . فبه استوى الصديق والعدو والأجنبي في المعاملة ، فهذا فساد ظاهر . فنقول وبالله التوفيق كلا مايحض إلا على المسامحة والتغافل والإيثار - ليس لأهل التغنم - لكن للصديق حقاً فإن أردت معرفة وجه العمل فى هذا والوقوف على نهج الحق ، فإن القصة التي توجب الأثرة - من المرء - على نفسه صديقه ، ينبغى لكل واحد من الصديقين أن يتأمل ذلك الأمر ، فأيهما كان أمس حاجة فيه ، وأظهر ضرورة لديه ؛ فحكم الصداقة والمروءة تقتضى للآخر وتوجب عليه أن يؤثر على نفسه فى ذلك ، فإن لم يفعل فهو متغنم مستكثر لا ينبغى أن يسامح البتة ، إذ ليس صديقاً ولا أخا فأما إذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما ، فحق الصداقة هاهنا أن يسارع كل واحد إلى الأثرة على نفسه . فإن فعلا ذلك فهما صديقان . وإن بدر أحدهما إلى ذلك ولم يبادر الآخر إليه فإن كانت عادته هذه فليس صديقا ، ولا ينبغى أن يعامل معاملة الصداقة . وإن كان قد يبادر هو أيضا إلى مثل ذلك فى

قصة أخرى فهما صديقان .

من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها أو أردت ابتداءه بقضائها ، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت وإلا فأمسك : فإن تعديت هذا كنت مسيئا لا محسنا ، ومستحقا للوم منه ومن غيره لا للشكر ، ومقتضيا للعداوة لا للصداقة . لا تنقل الى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته ، فهذا فعل الأراذل . ولا تكتمه ما يستضر بجهله فهذا فعل أهل الشر . ولا يسرك أن تمدح بما ليس فيك ، بل ليعظم غمك بذلك لإنه نقصُك ينبه الناس عليه ويسمعهم إياه ، وسخرية منك وهزء بك ، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل . ولا بأس إن ذُمِمْتَ بما ليس فيك ، بل افرح به فإنه فضلُك ، ينبه الناس عليه . ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح . وسواء مُدحت به أو لم تمدح . واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم . فسواء ذممت به أو لم تذم .

من سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء ، فلا يخبره بذلك أصلا . لا سيما إذا كان القائل عيَّابة وقاعا فى الناس سايط اللسان ، أو دافع مغرم عن نفسه ، يريد أن يكثر أمثاله فى الناس . وهذا كثير موجود . وبالجملة فلا يحدِّث الإنسان الا بالحق . وقول هذا القائل لايدري أحق هو أم باطل إلا أنه فى الديانة عظيم : فإن سمع القول مستفيضا من جماعة وعلم أن أصل ذلك القول شائع ، وليس راجعا إلى قول إنسان واحد أو اطلع على حقيقته إلا أنه لايقدر يوقف صديقه على ما وقف عليه هو ، فليخبره بذلك بينه وبينه فى رفق وليقل له : النساء كثير ، أو حصِّن منزلك وثقف أهلك ، أو اجتنب أمر كذا وتحفظ من وجه كذا . فإن قبل المنصوح وتحرز لحظ نفسه أصاب . وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالى أمسك ولم يعاوده بكلمة ، وتمادى على صداقته إياه ، فليس فى أن لا يصدقه فى قوله مايوجب قطيعته فإن اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على جل ماوقف هو عليه من الحقيقة ففرض عليه أن يخبره بذلك وأن يوقفه على الجلية .

فإن غيّر فذلك ، وإن رآه لا يغير اجتنب صحبته ولا خير فيه ولا بغية . ودخول رجل متستر[١] فى منزل المرء دليل سوء لا يُحتاج إلى غيره . ودخول المرأة فى منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً . وطلب دليلين أكثر من ذلك سخف . وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة ، وفراقُها[٢] على كل حال . وممسكها لا يبعد عن الدياثة .

الناس فى بعض أخلاقهم على تسع مراتب :

فطائفة تمدح فى الوجه وتذم فى المغيب ، وهذه صفة أهل النفاق والعيابين .

وهذا خلق فاش فى الناس غالب عليهم .

وطائفة تذم فى المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين .

وطائفة تمدح فى الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع .

(١) أى خلسة متخفياً .

(٢) التقدير : فراقها واجب

وطائفة تذم فى المشهد وتمدح فى المغيب ، وهذه صفة أهل السخف والنواكة .

وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهدة ، ويثنون بالخير فى المغيب أو يمسكون عن الذم . وأما العيابون البرآء من النفاق والقحة فيمسكون عن المدح وعن الذم فى المشهد والمغيب .

ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا .

إذا نصحت ففى الخلاء وبكلام لين، ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نماماً ، فإن خشّنت كلامك فى النصيحة فذلك إغراء وتنفير . وقد قال تعالى ﴿ فقولا له قولاً لينا ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تنفر . وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ، ولعلك تخطئ فى وجه نصحك ، فتكون مطالبًا بقبول خطئك وبترك الصواب .

لكل شىء فائدته ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ؛ وهى أنه توقد طبعى واحتدم خاطرى وحي فكرى

وتهييج نشاطى ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة النفع ، ولولا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف .

لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه . فما رأينا هذين العملين إلا سبباً للقطيعة . وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك . لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه . والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً . فإذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه ، رقعت المنـــازعة ومع وقوعها فساد المروءة . وأسلم المصاهرة مغبة ، مصاهرة الأهلين(١) بعضهم بعضاً ، لأن القرابة تقتضى العدل ، وإن كرهوه لأنهم مضطرون إلى ما لا انفكاك لهم منـــه ، من الاجتماع فى النسب الذى توجب الطبيعة لـكل أحد الذب عنه والحماية له .

(١) لـكن خالفه فى هذا المعنى قول الشاعر القديم :

تخيرتها للنسل وهى غريبة ... فجاءت به كالبدر خرقا معمما

فلو شاتم الفتيان فى الحى ظالما ... لما وجدوا غير التكذب مشتما

فصل

في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها

المحبة كلها جنس واحد . ورسمها أنها الرغبة في المحبوب ، وكراهة منافرته ، والرغبة في المقارضة منه بالمحبة . وإنما قدر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها . وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وانحسامها ، فتكون المحبة لله عز وجل وفيه . وللاتفاق على بعض المطالب ، وللأب والابن والقرابة والصديق ، وللسلطان ولذات الفراش ؛ وللمحسن والمأمول والمعشوق . فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه كما وصفت لك ، على قدر الطمع فيما ينال ، فلذلك اختلفت وجوه المحبة . وقد رأينا من مات أسفاً على ولده كما يموت العاشق أسفاً على معشوقه . وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات . وتجد المرء يغار على

سلطانه وعلى صديقه ، كما يغار على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه . فأدنى أطماع المحبة ، ممن تحب الحظوة منه ، والرفعة لديه والزلفة عنده إذا لم تطمع فى أكثر . وهذه غاية أطماع المحبين لله ، ثم يزيد الطمع فى المجالسة ثم فى المحادثة والمؤازرة . وهذه أطماع المرء فى سلطانه وصديقه وذى رحمه وأقصى أطماع المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء إذا رجا ذلك ، ولذلك نجد المحب المفرط المحبة فى ذات فراشه ، يرغب فى جماعها على هيآت شتى ، فى أماكن مختلفة ليستكثر من الاتصال . ويدخل فى هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل . وقد يقع بعض هذا الطمع ، فى الأب وفى ولده فيتعدى إلى التقبيل والتعنيق . وكل ماذكرنا إنما هو على قدر الطمع . فإذا انحسم الطمع عن شىء ما ، لبعض الأسباب الموجبة له ، مالت النفس إلى ماتطمع فيه . وتجد المقر بالرؤية شديد الحنين إليها عظيم التروح نحوها ، لايقنع بدرجة نحوها لأنه يطمع فيها . وتجد المنكر لها لاتحن نفسه إلى ذلك ولا يتمناه أصلا لأنه لا يطمع فيه . وتجده يقتصر على الرضا والحلول فى دار الكرامة

فقط ، لأنه لا تطمع نفسه فى أكثر . ونجد المستحل لنكاح القرايب لا يقدع منهن بما يقنع المحرم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع فى ذلك فتجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود ، لا يقف من محبتها حيث تقف محبة المسلم ، بل تجدهما يتعشقان الابنة وابنة الأخ كتعشيق المسلم فيمن يطمع فى مخالطته بالجماع . ولا تجد مسلما يبلغ ذلك فيهما ، ولو أنهما أجمل من الشمس وكان هو أعهر الناس وأغزلهم فإن وُجد ذلك فى الندرة فلا تجده إلا من فاسد الدين قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح الأمل وانفتح له باب الطمع . ولا يأمن المسلم أن تفرط محبته لابنة عمه حتى يصير عشقاً ، وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه وإن كانتا أجمل منها ، لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه ، حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه . وتجد النصرانى قد أمن ذلك من نفسه ، من ابنة عمه ، لأنه لا يطمع منها فى ذلك . ولا يأمن ذلك من نفسه فى أخته من الرضاعة ، لأنه طامع بها فى شرعته . فلاح بهذا

عيانا ما ذكرنا من أن المحبة كلها جنس واحد ، لكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها . وإلا فطباع البشر كلهم واحدة إلا أن للعادة والاعتقاد الدِّيَانى تأثيراً ظاهراً ولسنا نقول : إن الطمع له تأثير فى هذا الفن وحده . لكننا نقول : إن الطمع سبب إلى كل هم وحتى فى الأموال والأحوال فإننا نجد الإنسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لأم وابن أخيه لأم وجده أبو أمه وابن بنته ، فإذ لا مطمع له فى ماله ارتفع عنه الهم بفوته[1] عن يده ، وإن جل خطره وعظم مقداره ، فلا سبيل إلى أن يمر الاهتمام بشىء منه بباله ، وإذا مات له عصبة على بعد أو مولى على بعد ، حدث له الطمع فى ماله وحدث له من الهم والأسف والغيظ والفكرة بفوت اليسير منه عن يده ، أمر عظيم .

وهكذا فى الأحوال فتجد الإنسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لإنفاذ غيره أمور بلده دون أمره ، ولا لتقريب غيره

(١) أى فوت المال .

وإبعاده حتى إذا حدث مطمع فى هذه المرتبة ، حدث له من الهم والفكرة والغيظ أمر ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه .

فالطمع إذاً أصل لكلّ ذل ولكلّ هم ، وخُلُقٌ سوء ذميم ، وضده نزاهة النفس . وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم ، لأنه رأى قلة الفائدة فى استعمال ضدها فاستعملها ، وكانت فيه نجدة أنتجت له عزة نفسه فتنزه ، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته ، وكانت فيه طبيعة عدل حببت إليه القنوع وقلة الطمع .

فإذن نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات . فالطمع الذى هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات الأربع وهى الجبن والشح والجور والجهل . والرغبة طمع مستوفى متزايد مستعمل ولولا الطمع ماذُلَّ أحد لأحد . وأخبرنى أبو بكر بن أبى الفياض قال كتب عثمان بن محاسن على باب داره باستجة : ياعثمان لاتطمع .

فصل

من هذا البـــاب

من امتُحن بقرب من يكره ، كمن امتُحن بصد من يحب ولا فرق إذا دعا المحب فى السلو ، فإجابته مضمونة وهى دعوة مجابة . اقتنع بمن عندك يقنع بك من عندك . السعيد فى المحبة هو من ابتُلِىَ بمن يقدر أن يلقى عليه قفله[1] ، ولا تلحقه فى مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس . وصلاح ذلك أن يتوافقا فى المحبة . وتحريره أن يكونا خاليين من الملل ، فإنه خلق سوء منغص ، وتمامه نوم الأيام عنهما ، مدة انتفاع بعضهما ببعض ، وأنى بذلك إلا فى الجنة . وأما ضمانه بيقين فليس إلا فيها فهى دار القرار ، وإلا فلو حصل ذلك كله فى الدنيا لم تؤمن الفجائع ولقطع العمر دون استيفاء اللذة .

(١) هى كذلك بالأصل ولعلها مصحفة من كلمة « ثقله » وهى أنسب للسياق .

إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة . الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل . لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره إلى حرمته . ومن كانت النجدة له طبعاً حدثت فيه عزة . ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام . أخبرنى بعض من صحبناه فى الدهر عن نفسه : أنه ما عرف الغيرة قط حتى ابتُلى بالمحبة فغار . وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيثِ التركيب ، إلا أنه من أهل الفهم والجود .

دَرَجُ المحبة خمسة : أولها الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة ، أو يستحسن أخلاقه وهذا يدخل فى باب التصادق . ثم الإعجاب وهو رغبة الناظر فى المنظور إليه فى قربه . ثم الألفة وهى الوحشة إليه إذا غاب . ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به ، وهذا النوع يسمى فى الغزل العشق . ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك . وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت . وليس وراء هذا منزلة فى تناهى المحبة أصلا .

فصل

كنا نظن أن العشق فى ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر ، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك ، وهو فى الساكنة الحركات أكثر ، ما لم يكن ذلك السكون بلها .

فصل

فى أنواع صباحة الصور ؛ وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها فقلت : الحلاوة دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الإشارات وقبول النفس لأعراض الصور . وإن لم تكن ثَمَّ صفات ظاهرة القوام : جمال كل صفة على حدتها . ورب جميل الصفات على انفراد كل صفة منها ؛ بارد الطلعة ؛ غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو الروعة ، بهاء[1] الأعضاء الظاهرة . وهى أيضاً الفراهة . والعتق الحسن . وهو شىء ليس له فى اللغة اسم يعبر به عنه ؛ ولكنه محسوس فى النفوس باتفاق

---

(١) الظاهر أنها : ببهاء الأعضاء الظاهرة .

كل من رآه . وهو برد مكسو على الوجه ، وإشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه وإن لم تكن هناك صفات جميلة فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى إذا تأملت الصفات أفراداً لم تر طائلا . وكأنه شيء[1] في نفس المرئى يجده نفس الرائى . وهذا أجل مراتب الصباحة . ثم تختلف الأهواء بعد هذا فمن مفضل الروعة ومن مفضل للحلاوة . وما وجدنا أحدا قط يفضل القوام المنفرد . الملاحة اجتماع شيء بشيء مما ذكرنا .

(١) لعله يقصد خفة الروح ولطافتها

فصل

فيما يتعامل به الناس في الأخلاق

التلون المذموم هو التنقل من زى متكلف لا معنى له إلى زى آخر مثله فى التكلف وفى أنه لا معنى له ، ومن حال لا معنى لها إلى حال لا معنى لها بلا سبب يوجب ذلك . فأما من استعمل من الزى ما أمكنه مما به إليه حاجة . وترك التزيد مما لا يحتاج إليه . فهذا عين من عيون العقل والحكمة كثير . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة فى كل خير ، والذى أثنى الله تعالى على خلُقِه ، والذى جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها ، وأبعده عن كل نقص . يعود المريض مع أصحابه راجلا فى أقصى المدينة بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة . ويلبس الشعر إذا حضره . ويلبس الوشى من الحبرات إذا حضره لا يتكلف ما لا يحتاج إليه ، ولا يترك ما يحتاج إليه ، يستغنى بما وجد عما لا يجد . ومرة

يمشى حافياً راجلا . ومرة يلبس الخف ويركب البغلة الرائعة الشهباء . ومرة يركب الفرس ، ومرة يركب النـــاقة ومرة يركب حماراً ويردف عليه بعض أصحابه ، ومرة يأكل التمر دون خبز والخبز يابسا . ومرة يأكل العَنَاق[1] المشـــوية والبطيخ بالرطب والحلواء ، يأخذ القوت[2] ويبذل الفضل ، ويترك مالا يحتاج إليه ولا يتـكلف فوق مقدار الحاجة ، ولا يغضب لنفسه ولا يدع الغضب لربه عز وجل .

الثبات الذى هو صحة العقد ، والثبات الذى هو اللجاج؛ يشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما إلا عارف بكيفيه الأخلاق والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل . أو ما فعله الفاعل نصراً لما نسب فيه وقد لاح له فساده أو لم يلح له صوابه ولا فساده ، وهذا مذموم . وضده الإنصاف وأما الثبات الذى هو صحة العقد، فإنما يكون على الحق أو على

---

(١) العناق كسحاب أنثى صغار الماعز .
(٢) أى مما رزقه الله ويبذل ما زاد .

ما اعتقده المرء حقاً ما لم يلح له باطله ؛ وهذا محمود . وضـــده الاضطراب . وإنما يلام بعض هذين لأنه ضيع تدبر ما ثبت عليه وترك البحث عما التزم ، أحق هو أم باطل .

حد العقل استعمال الطاعات والفضائل وهذا الحد ينطوى فيه اجتناب المعاصى والرذائل وقد نص الله تعالى فى غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل . وقال الله تعالى حاكياً عن قوم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ . ثم قال تعالى مصدقا لهم : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

وحد الحمق استعمال المعاصى والرذائل . وأما التعدى وقذف الحجارة ؛ والتخليط فى القول ، فإنما هو جنون ومرار هائج . وأما الحمق فهو ضد العقل وهما ما بينا آنفاً ولا واسطة بين العقل والحمق إلا السخف .

وحد السخف هو العمل والقول بما لا يحتاج إليه فى دين

ولا دنيا ، ولا حميد خلق ، مما ليس معصية ولا طاعة ولا عوناً عليهما ، ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية ، ولكنه من هذر القول وفضول العمل . فعلى قدر الاستكثار من هذين الأمرين والتقلل منهما يستحق المرء اسم السخف . وقد يسخف المرء فى قصة ويعقل فى أخرى ويحمق فى ثالثة .

وضد الجنون تمييز الأشياء . ووجود القوة على التصرف فى المعارف والصناعات ، وهذا الذى يسميه الأوائل النطق[1] ولا واسطة بينهما . وأما إحكام أمر الدنيا والتودد الى الناس بما وافقهم ، وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره أو عيب أو ما عداه ، والتحيل فى انماء المال وبعد الصوت وتسبيب الجاه ، بكل ما أمكن من معصية ورذيلة فليس عقلا . ولقد كان الذين صدقهم الله فى أنهم لا يعقلون وأخبرنا بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم مثمرين لأموالهم حافظين لرياستهم . لكن هذا الخلق يسمى

(١) لعله أراد المنطق .

الدهاء وضده العقل والسلامة ، وأما إذا كان السعى فيما ذكرنا بما فيه تصاون وأنفة فهو يسمى الحزم ، وضده المنافى له التضييع .

وأما الوفاء ووضع الكلام موضعه والتوسط فى تدبير المعيشة ومسايرة الناس بالمسالمة ، فهذه الأخلاق تسمى الرزانة . وهى ضد السخف .

الوفاء مركب من العدل والجود والنجدة . لأن الوفىّ رأى من الجور أن لا يعارض (١) من وثق به أو من أحسن إليه بعدل فى ذلك . ورأى أن يسمح بعاجل – يقتضيه له عدم الوفاء – من الحظ فجاد فى ذلك ، ورأى أن يتجلد لما يقع من عاقبة الوفاء فشجع فى ذلك .

أصول الفضائل أربعة عنها تتركب كل فضيلة ؛ وهى : العدل والفهم والنجدة والجود .

أصول الرذائل كلها أربعة عنها تتركب كل رذيلة ؛ وهى

(١) هى كذلك بالأصل وفى نسختى (هـ) و (ح) يقارض .

أضداد الذى ذكرنا وهى : الجور والجهل والجبن والشح . الأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود . قال أبو محمد على بن أحمد مما قلته فى الأخلاق :

إنما العقل أساس فوقه الأخلاق سور
فحلّ العقل بالعلم وإلا فهو بور
جاهل الأشياء أعمى لا يرى كيف يدور
وتمام العلم بالعدل وإلا فهو زور
وزمام العدل بالجود ، وإلا فيجور
وملاك الجود بالنجدة ، والجبن غرور
عفّ إن كنت غيورا ، ما زنى قط غيور
وكمال الكل بالتقوى وقول الحق نور
ذى أصول الفضل عنها حدثت بعد النذور

ومما قلته أيضاً :

جميع أصول الفضائل عدل وفهم وجود وباس

فمن هـــذه ركبت غيرها   فمن حازها فهو فى الناس راس
كذا الراس فيه الأمور التى   بإحساسها يكشف الإلتباس

فى النفس فضيلة تركبت من النجدة ، وكذلك الصبر . والحلم نوع مفرد من أنواع النجدة ؛ والقناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل . الشره متولد عن الطمع . والطمع متولد عن الحسد ، والحسد متولد عن الرغبة . والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل .

الحرص — ويتولد من الحرص رذائل عظيمة ؛ منها : الذل والسرقة والغصب والزنا ؛ والقتل والعشق والهم بالفقر ، والمسألة لما بأيدى الناس . وإنما فرقنا بين الحرص والطمع لأن الحرص هو إظهار مااستكن فى النفس من الطمع .

والمداراة فضيلة متركبة من الحلم والصبر . الصدق مركب من العدل والنجدة .

لاشىء أقبح من الكذب ، وما ظنك بعيب يكون

الكفر نوعا من أنواعه . فكل كفر كذب ، فالكذب جنسٌ الكفر نوع تحته .

الكذب متولد من الجور والجبن والجهل . لأن الجبن يولد مهانة النفس ، والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة .

رأيت الناس فى كلامهم الذى هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساما ثلاثة :

أحدها — من لا يبالى فيما أنفق كلامه . فيتكلم بكل ماسبق إلى لسانه غير محقق نصر حق ولا إنكار باطل ، وهذا هو الأغلب فى الناس .

والثانى — أن يتكلم ناصراً لما وقع فى نفسه أنه حق ، ودافعاً لما توهم أنه باطل . غير محقق لطلب الحقيقة ، لكن لجاجاً فيما التزم وهذا كثير . وهو دون الأول .

والثالث — واضع الكلام فى موضعه وهذا أعز من الكبريت الأحمر .

لقد طال هم من غاظه الحق . إثنان عظمت راحتهما أحدهما في غاية المـــدح ، والآخر في غاية الذم . وهما مطّرح الدنيا ومطّرح الحياء[١] .

من عجيب تدبير الله عز وجل للعالَم ، أن كل شيء اشتدت الحاجة إليه ، كان ذلك أهون له . وتأمل ذلك في المـاء فما فوقه . وكل شيء اشتد الغنى عنه ، كان ذلك أعز له . وتأمل ذلك في الياقوت الأحمر فمـا دونه . الناس فيما يعانون كالمـاشي في الفلاة كلما قطع أرضا ، بدت له أرَضُون . وكلما قصـد المرء سبباً ، حدثت له أسباب .

صدق من قال إن العاقل في الدنيا متعوب[٢] . وصدق من قال إنه فيها مستريح . فأما تعبه فيما يرى من انتشار الباطل وغلبته دولته وبمـــا يحال بينه من إظهار الحق . وأما راحته فمن كل مايهتم به سائر الناس من فضول الدنيا .

---

(١) من كلام النبوات : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

(٢) قال الشاعر :

ذو اللب يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

إياك وموافقة الجليس السيء ومساعدة أهل زمانك فيما يضرك فى أخراك أو فى دنياك وإن قل ، فإنك لا تستفيد بذلك إلا الندامة ، حيث لا ينفعك الندم . ولن يحمدك امرؤ ساعدته بل يشمت بك . وأقل ذلك وهو المضمون أنه لا يبالى سوء عاقبتك ، وفساد مغبتك . وإياك ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك ، فى ما لا يضرك فى دنياك ولا فى أخراك وإن قل ؛ فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلا .

إن لم يكن بد من إغضاب الناس وإغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق ، فأغضب الناس ونافرهم . ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق .

الاتساء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى وعظه أهل الجهل والمعاصى والرذائل واجب . فمن وعظ بالجفا والاكفهرار فقد أخطأ وتعدى طريقته صلى الله عليه وسلم وصار فى أكثر الأمر

مغريا الموعوظ بالتمادى على أمره لجاجاً وحرجاً ، ومغايظة للواعظ الجافى ، فيكون فى وعظه سيئاً لا محسناً . ومن وعظ ببشر وتبسم ولين ، كأنه مشير برأى ومخبر عن غير الموعوظ ، بما يستقبح من الموعوظ ، فذلك أبلغ وانجع فى الموعظة . فإن لم ينتقل[١] فلينتقل إلى الوعظ بالتحشيم[٢] وفى الخـــلاء . فإن لم يقبل ففى حضرة من يستحيى منه الموعوظ . فهذا أدب الله فى أمره بالقول اللين . وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه بالموعظة لـكن يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا . وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على الرفق . وأمر بالتيسير . ونهى عن التنفير . وكان يتخول[٣] بالموعظة خـــوف الملل . وقال تعالى : ﴿ ولو كنت فظا غليظ

---

(١) هى فى نسخة (ش) هكذا . وفى (هـ) يتقبل أما فى (ح) فهو يقبل .

(٢) حشمه : آذاه وأخجله بإسماعه مايكره .

(٣) أى يتعهدنا بالموعظة بين الحين والحين .

القلب لانفضوا من حولك ﴾ وأما الغلظة والشدة فإنما تجب فى حد من حدود الله تعالى فلا لين فى ذلك للقادر على إقامة الحد خاصة . ومما ينجع فى الوعظ أيضاً : الثناء بحضرة المسىء على من فعل خلاف فعله . فهـذا داعية إلى عمل الخير ، وما أعلم لحب المدح فضلا إلا هذا وحده . وهو أن يقتدى به من يسمع الثناء ، ولهذا نوجب أن نؤرخ[١] الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح — المأثور عن غيره — ويرغب فى الحسن المنقول عمن تقدمه ، ويتعظ بما سلف .

وتأملت كل مادون السماء وطالت فكرتى ، فوجدت كل شىء فيه من حى وغير حى ، طبعه إن قوى أن يقلع عن غيره من الأنواع كيفياته ، ويلبسه صفاته ، فترى الفاضل يود لو كان

(١) ورد هذا الفعل فى نسخة (ش) بنون المضارع المبنى للمعلوم وفى نسختى (هـ) و (ح) ورد بتاء المضارع المبنى للمجهول وهى الأنسب للمقام والأليق بسياق الكلام .

الناس فضلاء [وترى الناقص يودلو كان الناس نقصاء][1]، وترى كل من ذكر شيئاً يحض عليه بقول أو فعل أمرا مدا وما[2]، وكل ذى مذهب، يود لو كان الناس موافقين له . وترى ذلك فى الغياض[3] إذا أحال بعضها على بعض أحاله إلى نوعيته، وترى ذلك فى تركيب الشجر، وفى تغذى النبات والشجر والماء ورطوبة الأرض، وإحالتها ذلك إلى نوعيتها، فسبحان مخترع ذلك ومدبره لا اله الا هو .

---

(١) هذه العبارة ساقطة من (ش) وواردة بنسختى (هـ) و (ح) والأشهر فى جمع ناقص ناقصون ونقص بضم النون وفتح القاف المشـددة .

(٢) وردت هذه العبارة فى نسختى (هـ) و (ح) بتركيب آخر نصه : وترى كل من ذكر شيئاً يحض عليه يقول وأنا أفعل أمر كذا وهى أنسب للسياق .

(٣) فى نسختى (هـ) و (ح) بلفظ . العناصر إذا قـوى بعضها .. الخ .

من عجيب قدرة الله تعالى كثرة الخلق ، ثم لا ترى أحداً يشبه آخر شبهاً لا يكون بينهما فيه فرق ، وقد سألت من طال عمره وبلغ الثمانين عاما هل رأى الصور فى ماخلا مشبهة لهذه شبهاً واحداً . فقال : لا بل لكل صورة فرقها . وهكذا كل ما فى العالم يعرف ذلك .

من تدبر الآلات وجميع الأجسام المركبات وطال تكرر بصره عليها . فإنه حينئذ يميز ما بينها ويعرف بعضها من بعض بفروق ، فبهذا تعرفها النفس ولا يقدر أحد يعبر عنها بلسانه ، فسبحان العزيز الحكيم الذى لا تتناهى مقدوراته .

فصل

فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة

من امتُحِن بالعُجْب فليفكر فى عيوبه . فإن أُعْجِبَ بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة . فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لاعيب فيه ، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد ، وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزاً ، وأول ذلك أن ضعيف العقل جاهل . ولا عيب أشد من هذين ، لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها ، وسعى فى قمعها . والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه ، إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته . وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال ؛ وهذا أشد عيوب الأرض . وفى الناس كثير يفخرون بالزنا واللياط والسرقة والظلم فيُعجب بتأتى هذه النحوس له ، وبقوته على هذه المخازى .

واعلم يقينا أنه لا يسلم إنسى من نقص حاشا الأنبياء صلوات

الله عليهم ، فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط ، وصار من السخف والضعف والرذالة والخسة ، وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم ، بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأرذال وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة ، فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه ، والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها ، وعن عيوب غيره التى لاتضره لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وما أدرى لسماع عيوب الناس خصلة ، إلا الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها ، ويسعى فى إزالة ما فيه منها بحول الله تعالى وقوته .

وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لايسوغ أصلا . والواجب اجتنابه . إلا فى نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب ، أو على سبيل تبكيت المُعْجَب ، فقط فى وجهه لاخلفَ ظهره ، ثم يقول للمُعجَب . إرجع إلى نفسك . فإذا ميزت عيوبها ؛ فقد داويت عُجبك .

ولا تمثل بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبا منها ؛ فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لأهل الشر ، وقد ذُمَّ تقليد

أهل الخير ؛ فكيف تقليد أهل الشر . لكن مثل بين نفسك وبين من هو أفضل منك . فحينئذ يتلف عُجبك وتفيق من هذا الداء القبيح ، الذى يولد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا شك من هو خير منك ، فإذا استخففت بهم بغير حق، استخفوا بك بحق ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ . فتولِّد على نفسك الاستخفاف بك . بل على الحقيقة مع مقت الله عز وجل ، وطمس ما فيك من فضيلة .

فإن أُعجِبْتَ بعقلك ففكر فى حل فكرة سوءٍ تحل بخاطرك ، وفى أضاليل الأمانى الطائفة بك ، فإنك تعلم لِمَ نقص عقلك حينئذ .

وإن أُعجِبْتَ بآرائك فتفكر فى سقطاتك واحفظها ولا تنسها ، وفى كل رأى قدرته صوابا فخرج بخلاف تقديرك ، وأصاب غيرك وأخطأت أنت . فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن يوازن سقوطُ رأيك صوابه ، فتخرج لا لك ولا عليك . والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك . وهكذا

كل أحد من الناس بعد النبيين صلوات الله عليهم .

وإن أُعجِبْت بخيرك ، فتفكر فى معاصيك وفى تقصيرك وفى معايبك ووجوهه ، فوالله لتجدَنَّ من ذلك مايغاب على خيرك ، ويعفى على حسناتك . فليطل همك حينئذ وأبدل من العُجْب نقصاً لنفسك .

وإن اُعجِبْت بعلمك ، فاعلم أنه لاخصلة لك فيه وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى . فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تُولِّدُ عليك نسيان ما علمت وحفظت . ولقد أخبرنى عبد الملك بن طريف ، وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث ، أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم ، لا يكاد يمر على سمعه شىء يحتاج إلى استعادته ؛ وأنه ركب البحر فمر به فيه هول شديد ، أنساه أكثر ما كان يحفظ ، وأخل بقوة حفظه إخلالا شديداً لم يعاوده ذلك الذكاء بعد . وأنا أصابتنى علة فأفقت منها وقد ذهب

ما كنت أحفظ ، الا مالا قدر له[1] فما عاودته إلا بعد أعوام .

واعلم أن كثيرا من أهل الحرص على العلم يجدُّون فى القراءة والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظا ، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه فصح أنه موهبة من الله تعالى . فأى مكان للعُجب هاهنا ؟ ماهذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه ، واستعاذة من سلبها .

ثم تفكر أيضاً فى أن ما خفى عليك وجهلته من أنواع العلم ، ثم من أصناف علمك الذى تختص به فالذى أعجبت بنفاذك فيه ، اكثرُ مما تعلم من ذلك . فأجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك واستقصاراً[2] ، فهو أولى . وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً ، فلتَهُنْ نفسُك عندك حينئذ ، وتفكر فى إخلالك بعلمك وأنك لا تعمل بما علمت منه ، فعلمك

(١) أى لم يبق له إلا القليل الذى لا يذكر .
(٢) أى عد نفسك مقصراً .

عليك حجة حينئذ ، ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالماً . واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالاً وأعذر ، فليسقط عُجْبُك بالكلية .

ثم لعل علمك الذى تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التى لا كبير خصلة[1] فيها كالشعر وما جرى مجراه . وانظر حينئذ إلى من علمه أجَلُّ من علمك فى مراتب الدنيا والآخرة ، فهوِّن نفسك عليك .

وإن أُعجِبت بشجاعتك ، فتفكر فيمن هو أشجع منك ثم انظر فى تلك النجدة التى منحك الله تعالى ، فيم صرفتها فإن كنت صرفتها فى معصية فأنت أحمق لأنك بذلت نفسك فيما ليس ثمناً لها . وإن كنت صرفتها فى طاعة ، فقد أفسدتها بعُجْبك . ثم تفكر فى زوالها عنك بالشيخوخة[2] وأنك إن

(١) أى جالبة للثناء والفضل .

(٢) وفى ذلك أيضا يتمثل لبيد بن ربيعة العامرى يقول :

أليس ورائى إن تراخت منيتى   لزوم العصا تحنى عليها الأصابع =

عشت فستصير من عدد العيال وكالصبي ضعفاً . على أنى ما رأيت العجب فى طائفة أقل منه فى أهل الشجاعة . واستدللت بذلك على نزاهة أنفسهم ورفعتها وعلوها .

═ وهى قصيدة باكية حزينة فى جاهليته إذ صعق أخوه ؛ مطلعها ..

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الديار بعدنا والمصانع

* * *

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا ... فكل أمرىء يوما له الدهر فاجع
وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها ، وتغدو بلاقع
ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم ... كما ضم إحدى الراحتين الاصابع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المرء إلا مضمرات من التقى ... وما المال إلا عاريات ودائع
أليس ورائى .. ..
أخبر أخبار القرون التى مضت ... أدب كأنى كلما قمت راكع
فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع

* * *

أعاذل ما يدريك إلا تظنيا ... إذا رحل الفتيان من هو راجع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى ... وأى كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وإن أعجِبْت بجاهك فى دنياك فتفكر فى مخالفيك وأندادك ونظرائك ، ولعلهم أخساء وضعفاء سقاط ، فأعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ، ولعلهم ممن يستحى من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم فى أنفسهم وأخلاقهم ومنابتهم . فاستحصن بكل منزلة شاركك فيها من ذكر . وإن كنت مالك الأرض كلها ولا مخالف عليك — وهذا بعيد جدا فى الإمكان — فما نعلم أحدا ملك معمور الأرض كله على قلته وضيق ساحته بالإضافة إلى غامرها ، فكيف اذا أُضيف الى الفَلَك المحيط . فتفكر فيما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له يا أمير المؤمنين فلو مُنِعْتَ هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد : بملكى كله . قال : يا أمير المؤمنين فلو مُنِعْتَ خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدى من ذلك ؟ قال بملكى كله . قال : يا أمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوى بولة ولا شربة ماء . وصدق ابن السماك رحمه الله .

وإن كنت ملك المسلمين كلهم فاعلم أن ملك السودان وهو

رجل أسود مكشوف العورة جاهل ؛ يملك أوسع من ملـكك. فإن قلت : أنا أخذته بحق . فلعمرى ماأخذته بحق إذا استعملت فيه رذيلة العُجْب . وإذا لم تعدل فيه فاستح من حالك فهى رذالة لا حالة يجب العُجْب فيها .

وإن أعجبت بمالِك فهذه أسوأ مراتب العُجْب ، فانظر فى كل ساقط خسيس فهو أغنى منك . فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت .

واعلم أن عجبك بالمال حمق لأنه أحجار لاتنتفع بها إلا أن تخرجها عن ملـكك بنفقتها فى وجهها فقط ، والمال أيضاً غاد ورائح(١) وربما زال عنك ورأيته بعينه فى يد غيرك ، ولعل ذلك

(١) والمال أيضاً — كما ذكر القدماء — سبب إلى الفضائل ووسيلة إلى غاية وهـو غاد ورائح كما عرفه العرب قديما . قال : حاتم بن عبد الله الطائى :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

من قصيدة طويلة فاخرة له فى الجاهلية البعيدة يقول فيها . =

يكون عدوا . فالعجب بمثل هذا سخف والثقة به غرور وضعف .

= أماوى إنى لا أقول لسائل إذا جاء يوما حل فى مالنا النذر
أماوى إما مانــع فمبــين وإما عطاء لاينهنهه انزجـر
أماوى مايغنى الثراء عن الفتى إذاحشرجت يوما وضاق بها الصدر
إذا أنا دلانى الذين أحبهـــم بملحودة زلخ جـــوانبها غبر
وراحوا سراعا ينفضون أكفهم يقولون قد دمى أناملنا الحفر
ماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لاماء لدى ولا خمر
ترىْ أنا ماأنفقت لم يك ضرنى وأن يدى ممـا بخلت به صفر
أماوى إنى رب واحـــد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
فإنى لا آلو بمالى صنيعـــــة فأوله زاد وآخره ذخـــر
يفك به العانى ويؤكل طيبـــا وما أن تعريه القداح ولا الخمر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكأسيها العصر
فمـــا زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
وماضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمى يجاورنى ألا يـكون له ستر
بعينى عن جارات قومى غفلة وفى السمع منى عن حديثهم وقر =

وإن أعجبت بحسنك ففكر فيما يولد عليك ما نستحى نحن من إتيانه ، وتستحى أنت منه إذا ذهب عنك ، بدخولك فى السن وفيما ذكرنا كفاية .

= وفى قريب من هذه الأغراض السامية يقول أيضا من قصيدة طويلة أخرى مطلعها : —

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد   كذاك الزمان بيننا يتردد
يرد علينا ليلة بعد يومها   فلا نحن ما نبقى ولا الدهر ينفد

إلى قوله :

فأقسمت لا أمشى على سر جارتى   يد الدهر ما دام الحمام يغرد
ولا أشترى مالا بغدر علمته   ألا كل مال خالط الغدر أنكد
إذا كان بعض المال ربا لأهله   فإنى بحمد الله مالى معبد
يفك به العانى ويؤكل طيبا   ويعطى إذا من البخيل المصرد
إذا ما البخيل الخب أخمد ناره   أقول لمن يصلى بنارى أوقدوا
توسع قليلا أو يكن ثم حسبنا   وموقدها البادى أعف وأحمد
كذاك أمور الناس راض دنية   وسام إلى فرع العلا متورد

.. .. إلخ =

وإن أُعجِبْت بمدح إخوانك ففكر فى ذم أعدائك إياك ، فحينئذ ينجلى عنك العُجْب . فإن لم يكن لك عدو فلا خير فيك ، ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له . فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها ؛ عافانا الله . فإن استحقرت عيوبك ففكر فيها ، ولو ظهرَت إلى الناس(١)

═ وللمناسبة ؛ يلاحظ أن المضمون هنا يمثل القاعدة الأخلاقية السائدة المتعارف عليها فى المجتمع القبلى .. من خالفها عد خارجا عليها ، شاذا عن وضعها ، خليعا من مجتمعها ، منبوذا من جماعتها بشاهد ما يقول طرفة فى معلقته :

ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء لاينكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدد

(١) أى لابد يوما من ظهورها وإن طال الزمن وفى ذلك يقول الشاعر :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم ═

وتمثل اطلاعهم عليها فحينئذ تخجل ، وتعرف قدر نقصك إن كانت لك مسكة من تمييز .

= من قصيدة فاخرة جاهلية أخرى يقول فى بعضها :

وأعلم علم اليوم والأمس قبـــله
ولـكننى عن علم ما فى غـــد عم
ومن لم يصانع فى أمـــور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطـــأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لايتق الشـــتم يشتم
ومن هـاب أسباب المنايا ينلنــه
ولو رام أسباب الســـماء بسلم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه
يطيع العوالى ركبت كل لهـــذم
ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه
إلى مطمئن الـــبر لا يتجمجم
ومهما تـكن عند امرئ من خليقة
.. ..
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه
ولا يغنها يوما من الدهر يسأم =

واعــلم بأنك إن تعلمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الأخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة فى النفس ؛ فستقف من

= أو قول ذى الإصبع :

كل امرىء راجع يوما لشيمته   وإن تخلق أخلاقا إلى حين

من قصيدته الجاهلية الرائعة التى يقول فيها :

يامن لقلب شديد الهم محزون   أمسى تذكر ليلى أم هارون
أمسى تذكرها من بعدما شحطت   والدهر ذو غلظ حينا وذولين
فإن يكن حبها أمس لنا شجنا   وأصبح الولى منها لايؤاتينى
فقد غنينا وشمل الدار يجمعنا   أطيـع ريا وريا لاتعاصينى
نرمى العداة فلا نخطى مفاصلهم   بخالص من صفاء الود مكنون
ولى ابن عم على ما كان من خلق   مخالفان فأقليــه ويقلينى

* * *

لولا أواصر قربى لست تحفظها   ورهبة الله فى مولى يعادينى
أذن بريتك بريا لا انجبار له   إنى رأيتك لاتنفك تبرينى
إن الذى يبسط الدنيا ويقبضها   إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلـكم والله يعلمـــنى   والله يجزيـكم عنى ويجزينى
ولى ابن عم لو أن الناس فى كبدى   لظل محتجرا بالنبل يرمينى

ذلك وقوف يقين ، على أن فضائلك لا خصلة لك فيها وأنها منح من الله تعالى ، لو منحها غيرك لكان مثلك ، وأنك لو وُكلت إلى نفسك لعجز وهلكت ، فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك إياها ، وإشفاقاً من زوالها . فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم . وارحم من منُع ما منحتَ ، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصى على واهبها تعالى ؛ وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقاً ، فتقدر أنك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا وآجلا .

ولقد أصابتنى علة شديدة ولّدَتْ علىَّ ربوا فى الطحال

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

كل امرىء راجع .. ..

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ولا خيرى بممنون

ولا لسانى على الأدنى بمنطلق بالمنكرات ولا فتكى بمأمون

لا يخرج القسر منى غير مأبية ولا ألين لمن لا يبتغى لينى

شديداً ، فولدذلكعلىّ من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنَّزَق أمرا حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدُّل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولَّد ضده .

وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا ، لأن هذا الذى أعجبت به لا فائدة له أصلا فى دنيا ولا آخرة ، وانظر هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك فى آخرتك ؛ ثم انظر إلى من يساهمك فى نسبك ، وربما فيما هو أعلى منه ، ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ، ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة ، ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الإسلام ، فتأمل غبراتهم وبقاياهم ، ومن يُدِل بمثل ما تدل به من ذلك ، تجد أكثرهم أمثال الكلاب خساسة . وتلفهم فى غاية السقوط والرذالة ؛ والتبدل والتحلى بالصفات المذمومة .

ولا تغتبط بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك . ثم لعل الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقاً وشربة خمور ولاطة ومغنين ونوكى أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظلما وآثارا قبيحة تُبقى عارهم بذلك الأيامُ ، ويعظم إثمهم والندم عليها يوم الحساب .

فإن كان كذلك فاعلم أن الذى أُعْجِبْتَ به من ذلك داخل فى العيب والخزى والعار والشنار لا فى الإعجاب .

فإن أُعْجِبْتَ بولادة الفضلاء إياك ، فما أخلا يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلا ؛ وما أقل غناهم عنك فى الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنا . والناس كلهم أولاد آدم الذى خلقه الله بيده ، وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ولكن ما أقل نفعه لهم وفيهم كل معيب ، وكل فاسق وكل كافر .

وإذا فكر العاقل فى أن فضل أبائه لا يقربه من ربه تعالى ولا يكسبه وجاهة لم يحزها هو بسعده أو بفضله فى نفسه

ولا ماله ؛ فأى معنى للاعجاب بما لا منفعة فيه . وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه كما تقول العامة فى أمثالها . كالغبى يُزهى بذكاء أبيه .

فإن تعدى بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك، لأنه قد عجز عقلك عن مفارقة ما فيك من العجب . هذا إن امتُدحت بحق . فكيف إن امتُدحت بالكذب، وقد كان ابن نوح وأبو إبراهيم وأبو لهب عم النبى صلى الله عليه وسلم أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى ، وممن الشرفُ كله فى اتباعهم، فما انتفعوا بذلك . وقد كان فى من وُلِد لغير رِشْدَةٍ[1] من كان الغاية فى رياسة الدنيا كزيادٍ وأبى مسلم ، ومن كان نهايةً

(١) قال فى اللسان وهو لرشدة وقد يفتح وهو نقيض زنية وفى الحديث من ادعى ولدا لغير رشدة فلا يرث ولا يورث : يقال هذا ولد رشدة إذا كان لنكاح صحيح كما يقال فى ضده ولد زنية بالكسر فيهما ويقال بالفتح وهو أفصح اللغتين .

فى الفضل على الحقيقة ، كبعض من نُجِلُّه عن ذكره فى مثل هذا الفضل . ممن يُتقرب إلى الله تعالى بحبه والاقتداء بحميد آثاره .

وإن أُعجِبْت بقوه جسمك فتفكر فى أن البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال . وإن أعجبت بخفتك فاعلم أن الكلب والأرنب يفوقانك فى هذا الباب . فمن العُجْبِ العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق .

واعلم أن من قدّر فى نفسه عُجْباً أو ظن لها على سائر الناس فضلا ، فلينظر إلى صبره عند ما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمّل أو مصيبة ، فإن رأى نفسه قليلة الصبر ؛ فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذومين ، وغيرهم الصابرين أفضل منه ـ على تأخر طبقتهم فى التمييز ، وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشىء يسبق فيه على ما ذكرنا ، بل هو إما متأخر عنهم فى ذلك أو مساوٍ لهم ولا مزيد .

ثم لينظر إلى سيرته وعدله أو جوره فيما خـوله الله من نعمة أو مالٍ أو خول أو أتباع أو صحة أو جاه ، فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ، ووجدها حائفة فى العدل . فليعلم أن أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة ، من المخوَّلين أكثر مما هو فيه ؛ أفضل منه . فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل ، فالعدل بعيد عن العجب البتة . لعلمه بموازين الأشياء ومقادير الأخلاق والتزامه التوسط الذى هو الاعتدال من الطرفين المذمومين . فإن أُعجِبَ ، فلم يعدل . بل قد مال إلى جَنَبَةِ[1] الإفراط المذمومة .

واعلم أن التعسف وسوء الملكة ، لمن خولك الله تعالى أمره من رقيق أو رعية ، يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل . لأن العاقل الرفيع النفس العالى الهمة ، إنما يغلب أكفاءه فى القوة ونظراءه فى المنعة . وأما الاستطالة على من

(١) أى ناحيته

لا يمكنه المعارضة ، فسقوط فى الطبع ورذالة فى الخلق وعجز ومهانة ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جُرَذٍ [(١)] أو بقتل برغوث أو بفرك قملة وحسبك بهذا ضعةً وخساسةً .

واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأُسْد ، لأن الأُسْدَ إذا سجنت فى البيوت التى يتخذ لها الملوك ، أمن شرها والنفس وإن سجنت لم يؤمن شرها .

العُجْب أصل يتفرع عنه التيه والزهو والتكبر والنخوة والتعالى ، وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ولذلك صعب الفرق بينها على أكثر الناس . فقد يكون العجب لفضيلة فى المعجب ظاهرة . فمن معجب بعمله فيكفهرّ ويتعلق على الناس . ومن معجب بعلمه فيترفع ويتعالى . ومن معجب برأيه فيزهو [(٢)] على غيره . ومن معجب بنفسه فيتيه . ومن معجب

---

(١) الجرذ نوع من الفيران .

(٢) لم يرد هذا الفعل فى لغة العرب إلا بصيغة المبنى للمجهول « يُزهى » .

بجاهه وعلو حاله فيتكبر وينتحى . وأقل مراتب العجب أن تراه يتوقر عن الضحك فى مواضع وعن خفة الحركات وعن الكلام ؛ إلا فيما لابد له منه من أمور دنياه ، وعيب هذا أقل من عيب غيره . ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلا وموجباً لحمدهم . ولكن إنما يفعلون ذلك احتقاراً للناس وإعجاباً بأنفسهم ، فحصل لهم بذلك استحقاق الذم . وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . حتى إذا أراد الأمر ولم يكن هناك تمييز ، يحجب عن توفية العجب حقه ، ولا عقل جيد . حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم . بالكلام وفى المعاملة ، حتى إذا أراد ذلك وضعف التمييز والعقل ، ترقى ذلك إلى الاستطالة على الناس بالأيدى واللسان ، والتحكم والظلم والطغيان واقتضاء الطاعة لنفسه ، والخضوع لها إن أمكنه ذلك . فإن لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه ، واقتصر على ذم الناس ، والاستهزاء بهم .

وقد يكون العجب لغير معنى ولغير فضيلة فى المعجب ، وهذا من عجيب مايقع فى هذا الباب ، وهو شىء يسميه عامتنا التَّمَتْرُك وكثيراً مانراه فى النساء وفيمن عقله قريب من عقولهن من الرجال . وهو عُجْبُ من ليس فيه خصلة أصلا . لا علم ولا شجاعة ولا علو حال ولا نسب رفيع ولا مال يطغيه . وهو يعلم مع ذلك أنه صفر من ذلك كله ، لأن هذه الأمور لايغلط فيها من يقذف بالحجارة (١) وإنما يغلط فيها من له أدنى حظ منها . فربما يتوهم إن كان ضعيف العقل أنه قد بلغ الغاية القصوى منها . كمن له حظ من علم فهو يظن أنه عالم كامل . وكمن له نسب مُعْرِق فى ظَلَمَة ، وتجدهم لم يكونوا أيضاً رُفعاء (٢) فى ظلمهم ، فتجده لو كان ابن فرعون ذى الأوتاد مازاد على إعجابه الذى فيه . أو له شىء من فروسية فهو يقدر

---

(١) كفعل الأطفال والنوكى .

(٢) أى لم يكونوا مترفعين بل أدنياء .

أنه يهزم علياً ، ويأسر الزبير ، ويقتل خالداً . أوله شيء من جاه رَذْلٍ ، فهو لا يرى الإسكندر على حال [١] . أو يكون قوياً على أن يكسب مايتوفر بيده مؤمل [٢] يفضل عن قوته ، فلو أخذ بقرنى الشمس لم يزد على ما هو فيه [٣] ، وليس يكثر العُجْب من هؤلاء وإن كانوا عجباء . لكن ممن لاحظّ له من علم أصلا ولا نسبٌ البتة ، ولا مال ولا جاه ولا نجدة ، بل تراه فى كفالةِ غيره ، مهتضما لكل من له أدنى طاقة . وهو يعلم أنه خال من كل ذلك ، وأنه لاحظ له فى شيء من ذلك ، ثم هو مع ذلك فى حالة المزهوِّ التيَّاه .

ولقد تسببت إلى سؤال بعضهم فى رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس . فما وجدت عنده مزيداً على أن قال لى : أنا حر لست عبد أحد . فقلت له . أكثر من تراه

---

(١) أى من المجد والعظمة والجاه ، وأنه ليس شيئاً بجانبه .
(٢) أى مال قليل أمل أن يفضل عن حاجته ويزيد عن طعامه .
(٣) أى من الشعور بالكبرياء والاستعلاء على الناس .

يشاركك فى هذه الفضيلة فهم أحرار مثلك ، إلا قوما من العبيد هم أطول منك يدا ، وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الأحرار. فلم أجد عنده زيادة فرجعت إلى تفتيش أحوالهم ومراعاتها فأفكرت[١] فى ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذى لاسبب لهم[٢] . فلم أزل أختبر ماتنطوى عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مرامهم فى كلامهم فاستقر أمرهم على أنهم يقدرون أن عندهم فضل عقل ، وتميّز رأى أصيل ، لو أمكنتهم الأيام من تصريفه لوجدوا فيه متسعاً ، ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على سائر الناس . ولو ملكوا مالاً لأحسنوا تصريفه . فمن ها هنا تسرب التيه إليهم وسرى العُجب فيهم ، وهذا مكان فيه للكلام شغب عجيب ومعارضة معترضة ، وهو أنه ليس شىء من الفضائل كان المرء منه أغرى ، قوى ظنه فى أنه استولى عليه ، واستمر يقينه فى أنه قد كمل فيه إلا العقل

(١) أى تفكرت .

(٢) كذلك هى بالاصل ولعلها « له » .

والتمييز ، حتى إنك تجد المجنـون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح . والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء . والصبيان الصغار يتهكمون بالكهول ، والسفهاء العيارين يستخفون بالعقلاء المتصاونين . وضعفةَ النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم . وبالجملة فكلما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلا وأكمل تمييزا ، ولا يعرض هذا فى سائر الفضائل . فإن العارى منها جملة يدرى أنه عار منها ، وإنما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها وإن قل . فإنه يتوهم حينئذ إن كان ضعيف التمييز أنه على الدرجة فيه . ودواء من ذكرنا الفقر والخمول ، ولا دواء لهم أنجع منه . وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدا ، فلا تجدهم إلا عيابين للناس ، ووقاعين فى الأعراض ، مستهزئين بالجميع ، مجانبين للحقائق مكبين على الفضول . وربما كانوا مع ذلك متعرضين للمشاتمة والمهارشة ، وربما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم .

وقد يكون العُجْب كمينا فى المرء حتى إذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه وعجز عقله عن قمعه وستره . ومن ظريف مارأيت فى بعض أهل الضعف أن منهم من يغلبه ما يضمر من محبة ولده الصغير وامرأته حتى يصفها بالعقل فى المحافل ، وحتى أنه يقول هى أعقل منى وأنا أتبرك بوصيتها . وأما مدحه إياها بالجمال والحسن والعافية فكثير فى أهل الضعف جدا ، حتى كأنه لو كان خاطِبَهَا ، مازاد على ما يقول فى ترغيب السامع فى وصفها ولا يكون هذا إلا فى ضعيف العقل عار من العجب بنفسه .

العاقل من لايفارق ما أوجبه تميزه . من بديع مايقع فى الحسد قول الحاسد إذا سمع إنسانا يغرب فى علم ما : هذا شىء بارد إذ لم يتقدم إليه ولا قاله قبله أحد . فإن سمع من يبين ما قد قاله غيره قال : هذا بارد وقد قيل قبله . وهذه طائفة سَوْءٍ قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العلم ، يصدون الناس

عنها لتكثر نظراؤهم من الجهال .

إن الحكيم لاتنفعه حكمته عند الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله ، وقد شاهدت أقواماً ذوى طبائع ردية ، وقد تصورَ فى أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على مثل طبائعهم ، لايصدقون أصلا بأن أحدا هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه ، وهذا أسوأ ما يكون من فساد الطبع ، والبعد عن الفضل والخير ، ومن كانت هذه صفته لاترجى له معاناة أبدا وبالله تعالى التوفيق .

العدل حصن يلجأ إليه كل خائف وذلك أنك ترى الظالم ، وغير الظالم . إذا رأى من يريد ظلمه ، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه ، ولا يرى أحداً يذم من العدل [1] فمن كان العدل فى طبعه فهو ساكن فى ذلك الحصن الحصين .

الاستهانة نوع من أنواع الخيانة إذ قد يخونك من

(١) أى من قبيل العدل .

لا يستهين بك ومن استهان بك فقد خانك الإنصاف . فكل مستهين خائن . وليس كل خائن مستهينا . الاستهانة بالمتاع دليل برب المتاع . حالان يحسن فيهما ما يقبح فى غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار ، فإنه يحسن تعديد الأيادى وذكر الإحسان وذلك غاية القبح فى ماعدا هاتين الحالتين . لاعيب على من مال بطبعه إلى بعض القبائح ـ ولو أنه أشد العيوب وأعظم الرذائل ـ مالم يظهره بقول أو فعل ، بل يكاد يكون أحمد ممن أعانه طبعه على الفضائل ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد إلا عن قوة عقل فاضل .

الخيانة فى الحرم أشد من الخيانة فى الدماء . العرض أعز على الكريم من المال[1] ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله ،

(١) ولله در الشاعر القديم إذ يقول :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه   ولست للعرض إن أودى بمحتال

ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه . ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون بدينه شيئاً أصلا .

الخيانة فى الأعراض أشد من الخيانة فى الأموال ، وبرهان ذلك : أنه لا يكاد يوجد من لا يخون فى العرض ، وإن قل ذلك منه وكان من أهل الفضل . وأما الخيانة فى الأموال وإن قلت أو كثرت فلا تكون إلا من رَذْلٍ بعيد عن الفضل .

القياس فى أحوال الناس قد يكذب فى أكثر الأمور ويبطل فى الأغلب ، واستعمال ماهذه صفته فى الدين لايجوز .

المقلد راض أن يغبن عقله ، ولعله مع ذلك يستعظم أن يغبن فى ماله ، فيخطئ فى الوجهين معا : لأنه لايكره الغبن فى ماله ويستعظمه ، إلا لئيم الطبع دقيق الهمة مهين النفس . من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنه يحتوى على جميع الفضائل .

رُب مَخُوفٍ كان التحرز منه سبب وقوعه . رب سر

كانت المبالغة في طيه سبب انتشاره . ورب إعراض أبلغ في الاسترابة من إدامة النظر ، وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال .

الفضيلة وسيطة بين الإفراط والتفريط فكلا الطرفين مذموم ، والفضيلة بينهما . حاشا العقل فإنه لا إفراط فيه . الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع .

من العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة ، والرذائل مستقبحة ومستخفة .

من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فإنه يلوح له وجه تعسفه . حد الحزم معرفة الصديق من العدو . وغاية الخرق والضعف جهل العدو من الصديق . لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه وساوِ في ذلك بينه وبين الصديق وتحفظ منه ، وإياك وتقريبه وإعلاء قدره فإن هذا من فعل النَّوكى .

من ساوى بين عدوه وصديقه في التقريب والرفعة ، فلم يزد

على أن زهّد الناس فى مودته ، وسهل عليهم عداوته ، ولم يزد على استخفاف عدوه له ، وتمكنه من مقاتله ، وإفساد صديقه على نفسه ؛ وإلحاقه بجملة أعدائه .

غاية الخير أن يَسْلم عدوُّك من ظلمك ومن تركك إياه للظلم . وأما تقريبه فمن شيم النوكى الذين قرب منهم التلف . وغاية الشر أن يسلم صديقك من ظلمك وأما إبعاده فمن فِعْل من لا عقل له ، ومن كتب عليه الشقاء . ليس الحلم تقريب الأعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم . قلما رأيت أمراً أمكِن فضُيِّع ، إلا وفات فلم يمكن بعد . محن الإنسان فى دهره كثيرة ، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس .

داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكَلِبَةِ والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل ماذكرنا ممكن . ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا .

الغالب على الناس النفاق ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك

عندهم إلا من نافقهم . لو قال قائل فى الطبائع مزية ، لأن أطراف الأضداد تلتقى لم يبعد من الصدق ، وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى ؛ فنجد المرء يبكى من الفرح ومن الحزن . ونجد فرط المودة يلتقى مع فرط البغضة فى تتبع العثرات . وقد يكون ذلك سبباً للقطيعة عند عدم الصبر والإنصاف .

كل من غلبت عليه طبيعة ما فإنه - وإن بلغ الغاية من الحزم والحذر - فإنه مصروع إذا كُويِدَ من قِبَلِها .

كثرة المراتب[1] تعلم صاحبها الكذب لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بكذب ، فيضرى عليه ويستسهله . أعدل الشهود - على المطبوع على الصدق - وجهه لظهور الاسترابة عليه إن وقع فى كِذْبَةٍ أو هَمَّ بها . وأعدل الشهود على الكذاب لسانه . لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضا . المصيبة فى الصديق الناكث أعظم من المصيبة به .

---

(١) أى المناصب .

أشد الناس استسهالا للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالا لها بفعله ، وتبين ذلك فى مشافهات أهل البذاء ، ومشاتمات الأرذال البالغين غاية الرذالة من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء . كأهل التعيش بالزمر وكنس الحشوش والخادمين فى المجازر وكساكنى دور الحمل المباحة لكراء الجماعات والساسة للدواب . فإن كل من ذكرنا أشد الخلق رميا من بعضهم لبعض بالقبائح وأكثرهم عيبا بالفضائح وهم أوغل الناس فيها وأشهرهم بها .

اللقاء يذهب السخائم فكان نظر العين للعين يصلح القلوب . فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوك ، فإن ذلك يفتر أمره عنده .

أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر . وأشدها كلها إيلاما للنفس الهم للفقد من المحبوب(١) . وتوقع

(١) وفى مثل هذا المعنى يقول الشاعر القديم :

فقلت لها يانعم حلى محلنا   فإن الهوى والعيش يانعم جامع=

المكروه ثم الخوف ثم الفقر . ودليل ذلك أن الفقر يُستعجل ليطرد به الخوف ، فيبذل المرء ماله كله ليأمن . والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما المرض ، فيغرر الإنسان فى طلب الصحة ويبذل ماله فيها إذا أشفق من الموت . ويعود عند تيقنه به لو بذل ماله كله ويسلم ويفيق . والخوف يستسهل ليطرد به الهم فيغرر المرء بنفسه ليطرد الهم ، وأشد الناس كلها ألماً وجعٌ ملازم فى عضو مّا بعينه . وأما النفوس الكريمة فالذل[1] عندها أشد من كل ماذكرنا ، وهو أسهل المخوفات عند ذوى النفوس اللئيمة .

= فقالت وعيناها تفيضان عبرة ... بأهلك بين لى متى أنت راجع
فقلت لها تالله يدرى مسافر ... إذا أضمرته الأرض ما الله صانع
فشدت على فيها اللثام وأعرضت ... وأمعن بالكحل السحيق المدامع

(١) يقول الشاعر فى ذلك :

فلست بمستبق الحياة بذله ... ولا مرتق من خشية الموت سلما

وهى من قصيدة من أروع الشعر وأكرمه يصف بسالة =

فصل

من غرائب أخلاق النفس ينبغى للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكى المتظلم وتشكيه وشدة تلويه وتقلبه، فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين أنه الظالم المتعدى

=قومه من بنى ذبيان إذ هم فى حومة الموت يحمون الحقيقة؛ يقول :

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وإن كان يوما ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ولما رأيت الود ليس بنافعى عمدت إلى الأمر الذى كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة .. ..

وما أعجب قول المتنبى يصف أنفة النفس العربية يقول :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا واجدا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
يقولون لى ما أنت فى كل قرية وماتبتغى ؟ ماأبتغى جل أن يسمى
كأن بنيهم عالمون بأننى جلوب إليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجد والحزما
ولكننى مستنصر بذبابه ومرتكب فى كل حال به الغشما=

المفرِط الظلم . ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم

= وجاعله يوم اللقاء تحيتي وإلا فلست السيد البطل القرما
وإنى من قوم كأن نفوسهم أبت أنفاً أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يادنيا إذا شئت فاذهبي ويانفسى زيدى من كرائهها قدما
فلا عبرت ساعة لا تسرنى ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

وفيه الشاهد . .

أو قوله :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزما ما مرض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غـذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتـدار حجـة لاجىء إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميـت إيلام
ضاق ذرعا بأن أضيق به ذر عاً زمانى واستكرمتنى الكرام
واقفا تحت أخمصى قدر نفسى واقفا تحت أخمصى الأنام
أقـراراً ألذ فـوق شرار ومراما أبغى وظلمى يرام

وقوله :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أنى بما أنا شاك منه محسود =

التشكى مظهراً لقلة المبالاة ، فيسبق إلى نفس من لا يحقق النظر أنه ظالم ، وهذا مكان ينبغى التثبت فيه ومغالبة ميل النفس جملة، وأن لا يميل المرء مع الصفة التى ذكرنا ولا عليها . ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء . من عجائب الأخلاق أن الغفلة مذمومة وأن استعمالها محمود ، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع على الغفلة يستعملها فى غير موضعها وفى حيث يجب التحفظ ، وهى مغيب عن فهم الحقيقة فدخلت تحت الجهل فذمت لذلك : وأما المتيقظ الطبع فإنه لا يضع الغفلة إلا فى موضعها الذى يذم فيه البحث والتقصى . ويمدح التغافل فهماً

= ويلمها خطه ويل أم قابلها　　لمثلها خلق المهريه القود
وعندها لذ طعم الموت شاربه　　إن المنية عند الذل قنديد

أو قوله :

يذم لمهجتى ربى وسيفى　　إذا احتاج الوحيد إلى الذمام
ولما صار ود الناس خبا　　جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه　　لعلمى أنه بعض الأنام
وآنف من أخى لأبى وأمى　　إذا مالم أجده من الكرام
ولم أر فى عيوب الناس عيباً　　كنقص القادرين على التمام

للحقيقة وإضرابا عن الطيش واستعمالا للحلم وتسكيناً للمكروه . فلذلك حمدت حالة التغافل[١] وذمت الغفلة . وكذلك القول فى إظهار الجزع وإبطانه وفى إظهار الصبر وإبطانه فإن إظهار الجزع عند حلول المصائب مذموم[٢] ، لأنه عَجَزَ مُظْهِرُه عن مِلْكِ

(١) فى مثله وهو من أخلاق الكرماء يقول الشاعر القديم :

إنى ليعوزنى جدى فأتركه حينا وأخدع أحيانا فأنخدع

من قصيدة يقول فى بعض معانيها الرائعة :

لا قوتى قوة الراعى قلائصه يأوى فيأوى اليه الكاب والربع
ولا العسيف الذى يشتد نوبته حتى يبيت وباقى نعله قطع
لا يحمل العبد فينا فوق طاقته ونحن نحمل مالا تحمل القلع
منا الأناة وبعض القوم يحسبنا أنا بطاء وفى إبطائنا سرع

(٢) وفى هذا المعنى الكريم يقوم الشاعر القديم :

تعز فإن الصبر بالحر أجمل وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغنى أن يرى المرء جازعا لحادثة أو كان يغنى التذلل
لكان التعزى عند كل مصيبة ونائبة بالحر أولى وأجمل
فكيف وكل ليس يعدو حمامه وما لامرىء عما قضى الله مزحل
فإن تكن الأيام فينا تبدلت بنعمى وبؤسى والحوادث تفعل =

نفسه فأظهر أمراً لافائدة فيه ، بل هو مذموم فىالشريعة وقاطع عما يلزم من الأعمال ، وعن التأهب لما يتوقع حلوله مما لعله أشنع من الأمر الواقع الذى عنه حدث الجزع . فلما كان إظهار الجزع مذموما كان إظهار ضده محموداً وهو إظهار الصبر لأنه ملك للنفس واطراح لما لا فائدة فيه ، وإقبال على ما يعود وينتفع به فى الحال وفى المستأنف ، وأما استبطان [1] الصبر فمذموم لأنه ضعف فى الحسّ وقسوة فى النفس وقلة رحمة . وهذه أخلاق سوء لا تكون إلا فى أهل الشر وخبث الطبيعة وفى النفوس السَّبُعِيَّةِ الردية . فلما كان ما ذكرنا يقبح كان ضده محموداً وهو استبطان الجزع لما فى ذلك من الرحمة والرقة والفهم لقدر الرزية فصح بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء

= فما لينت منا قناة صليبة ولا ذللتنا للتى ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً صليبة تحمل ما لا يستطاع فتحمل
وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا فصحت لنا الأعراض والناس هزل

(١) أى إخفاؤه وستره حتى يبدو صاحبه كأن المصيبة مصيبة غيره لا مصيبته .

جزوع النفس صبور الجسد ، بمعنى أنه لا يظهر فى وجهه ولا فى جوارحه شيء من دلائل الجزع وبالله التوفيق .

لو علم ذو الرأى الفاسد ما استضر به من فساد تدبيره فى السالف ، لأنجح بتركه استعماله فيما يستأنف .

فصل

فى مطلع (١) النفس إلى ما يستر عنها من كلام مسموع أو شيء يدنى إلى المدح وبقاء الذكر

هذان أمران لا يكاد يسلم منهما أحدٌ إلا ساقط الهمة جدا ، أو من راض نفسه الرياضة التامة وقمع قوة نفسه الغضبية قمعاً كاملا ، أو عانى مداواة شَرَهِ النفس إلى سماع كلام يُستَرُ به (٢) عنها أو رؤية شيء اكتُتِم به ، دون أن يفكر

(١) هى كذلك بالأصل فى نسخة (ش) وكذلك بنسخة (ه) أما فى (ح) فقد وردت بلفظ (مطامع) والظاهر أنها الأصح حيث هى الانسب للسياق وقد تكون كلها مصحفة عن « تطلع » أو « مطمع » وأيا كان ، فالقصد قد بان .

(٢) هى كذلك بالأصل فى (ش) وكذلك فى (ه) أما فى (ح) فقد وردت بلفظ (يستتر) والمعنى واضح .

فيما غاب عنها من هذا النوع ، فى غير موضعه الذى هو فيه بل فى أقطار الأرض المتباينة . فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون عديم عقلٍ البتة . وإن لم يهتم لذلك فهل هذا الذى اختفى به عنه إلا كسائر ماغاب عنه منه سواءٍ ولا فرق . ثم ليزد احتجاجا على هواه فليقل بلسان عقله لنفسه : يانفس أرأيت إن لم تعلمى أن ههنا شيئاً أخفى عليك أكنت تَطَلعين إلى معرفة ذلك ؟ فلا بد من لا . فليقل لنفسه : فكونى الآن كما كنت تكونين لو لم تعلمى بأن ههنا شيئاً سُتِرَ عنك ، فتريحى (١) الراحة وتطردى الهم وألم القلق وقبح صفة الشَّرَهِ . وتلك غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأعراض فاضلة سنية يرغب العاقل فيها ولا يزهد فيها إلا تام النقص . وأما من علِق وهمه وفكره بأن ينبعد اسمه (٢) فى البلاد ، ويبقى ذكره على الدهر فليتفكر فى نفسه ، وليقل لها : يانفس أرأيت لو ذكرت بأفضل الذكر

---

(١) وردت كذلك بأصل (ش) أما فى (ه) و (ح) فقد وردت بلفظ « فتربحى » وهو الأصح .

(٢) أى صيته وشهرته .

فى جميع أقطار المعمور أبد الأبد ، إلى انقضاء الدهر ، ثم لم تُبلَغى ذلك ولا عرفتِ به ، أكان فى ذلك سرور أو غبطة أم لا ؟ ولا بد من لا . ولا سبيل إلى غيرها البتة . فإذا صح ذلك وتيقن ، فليقل يقيناً : إنه إذا مات ولا سبيل له إلى علم أنه يذكر أو أنه لا يذكر ، وكذلك وإن كان حيا إذا لم يبلغه .

ثم ليتفكر أيضاً فى معنيين عظيمين :

أحدهما — كثرة من خلا[1] من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم ، أولا : الذين لم يبق على أديم الأرض لهم عند أحد من الناس اسم ولا رسم ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه . ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار وملوك الأمم الدائرة ، وبناة المدن الخالية وأتباع الملوك أيضاً الذين قد انقطعت أخبارهم ولم يبق لهم عند أحد علم ولا لأحد بهم معرفة أصلا البتة . فهل ضر من كان فاضلا منهم ذلك أو نقص من فضائلهم أو طمس

(١) أى مضى وذهبت أيامه فأصبح مجرد ذكرى .

من محاسنهم أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل . ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس فى شىء من الدنيا خبر عن ملوك من ملوك الأجيال السالفة ، أبعد مما بأيدى الناس من تاريخ ملوك بنى إسرائيل فقط . ثم ما بأيدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس وكل ذلك لا يتجاوز ألفى عام . فأين ذكر من عمر الدنيا قبل هؤلاء ؟ أليس قد دثر وفنى وانقطع ونسى البتة ؟ وكذلك قال الله تعالى ﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ وقال تعالى : ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ وقال تعالى : ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ فهل الإنسان وإن ذكر برهة من الدهر ، إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين ذكروا ثم نسوا جملة .

ثم[1] ليتفكر الإنسان فى من ذكر بخير أو بشر ، هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أقام حياته ؟ فإذا كان هذا كما قلناه ، فالرغبة فى الذكر رغبة غرور ، ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلا . لكن

(١) وهذا ثانى المعنيين .

إنما ينبغى أن يرغب الإنسان فى الاستكثار من الفضائل وأعمال البر ، التى يستحق — من هى فيه[1] — الذكر الجميل ، والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة . فهى التى تقربه من بارئه تعالى ، وتجعله مذكوراً عنده عز وجل ؛ الذكر الذى ينفعه ويحصل على بقاء فائدته ولا يبيد أبد الأبد ، وبالله تعالى التوفيق .

شكر المنعم فرض واجب وإنما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فأكثر ، ثم بالتهمم بأموره بحسن الدفاع عنه . ثم بالوفاء له حيا وميتا ولمن يتصل به من ساقة وأهل كذلك . ثم بالتمادى على وده ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطى مساويه مادمت حيا ، وتوريث ذلك عقبك وأهل ودك . وليس من الشكر عونه على الآثام وترك نصيحته فيما يتوتغ[2] به دينه

(١) أى الصفات المذكورة .

(٢) هى كذلك بنسخه (ش) أما بنسختى (هـ) و (ح) فقد وردت بلفظ « يوتغ » وهى من باب فرح يفرح فرحا وفى القاموس بمعنى أفسد أى دينه ودنياه .

ودنياه ، بل من عاون من أحسن إليه على باطل فقد غشه وكفر إحسانه ، وظلمه وجحد إنعامه .

وإيضاً فإن إحسان الله تعالى وإنعامه على كل حال أعظم وأقدم وأهنأ من نعمة كل منعم دونه عز وجل . فهو تعالى الذى شق لنا الأبصار الناظرة ، وفتق فينا الآذان السامعة ، ومنحنا الحواس الفاضلة ، ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا ، وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض من الكواكب والعناصر . ثم[1] تفضل علينا من خلقه شيئاً غير الملائكة المقدسين ، الذين هم عُمَّار السموات فقط . فأين تقع نعم المنعمين من هذه النعم .

فمن قدر أن يشكر محسنا إليه ، بمساعدته على باطل وبمحاباته فيما لا يجوز . فقد كفر نعمة أعظم المنعمين ، وجحد إحسان أجل المحسنين إليه ، ولم يشكر ولى الشكر حقا ، ولا حَمِدَ أهل الحمد أصلا ، وهو الله عز وجل .

---

(١) هى كذلك بكل النسخ والظاهر أنها « لم يفضل » فوقع بها تصحيف ، أما القداسة فالقطع فيها لا يكون إلا بنص .

ومن حال بين المحسن إليه وبين الباطل وأقامه على مر الحق ، فقد شكره حقا ، وأدى واجب حقه عليه مستوفى . ولله الحمد أولا وآخرا على كل حال .

فى حضور مجالس العلم إذا حضرت مجلس العلم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علما وأجراً ، لا حضور مستغن بما عندك ، طالبا عثرة تشنعها ، أو غريبة تشيعها . فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون فى العلم أبداً . فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيرا على كل حال . وإن لم تحضر على هذه النية فجلوسك فى منزلك أروج(١) لبدنك ، وأكرم لخلقك وأسلم لدينك . فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهى :

إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية فى المشاهدة ، وعلى الثناء عليك بقلة الفضول ، وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس . فإن لم تفعل ذلك فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على

(١) هى كذلك بالأصل ولعلها مصحفة من «أروح» .

أجر النيَّة فى المشاهدة وعلى الثَّناء عليك بقلَّة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودَّة من تجالس، فإن لم تفعل ذلك فسئل سُؤال المتعلِّم فتحصل على هذه الأربع محاسن، وعلى خامسة وهى استزادة العلم.

وصفة المتعلِّم أن تسأل عمّا لا تدرى فإن السُّؤال عمَّا تدرى سُخف وقلَّة عقل، وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك، وربما أدّى إلى اكتساب العداوات وهو بعد عين الفضول.

وإيَّاك أن تراجع مُراجعة العالم، وصفة ذلك أن تُعارض جوابه بما ينقضه نقضا بيِّنا، فإن لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة فأمسك، فإنَّك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا على تعليم ولا تعلُّم، بل على الغيظ لك ولخصمك، والعداوة التى ربَّما أدّت إلى المضرَّات وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا ورد عليك خطاب بلسان، أو هجمت على كلام فى كتاب، فإيّاك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المبالغة قبل أن تتبيّن بطلانه ببرهان قاطع، وأيضا فلا تُقبِل عليه إقبال المصدِّق

بـه ، المستحسن إيّـاه قبل علمك ، فتُظلم فى كلا الوجهين جميعا ، ولكن إقبـال من يُـريد حـظّ نفسه فى فَهـم ما سمع ورأى ، فالتّـزيـد بـه علما وقبوله إن كان حسنا ، أو ردّه إن كان خـطأ فمضمون لك إن فعلت ذلك الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم .

(فـرض) علـى النّـاس تعلُّم الخيـر والعمل بـه ، فمن جمـع الأمرين استوفى الفضليـن معا ، ومن علمه ولم يعمل بـه فقد أحسن فـى التَّعليم وأسـاء فى تـرك العمل بـه ،فخلـط عملا صـالحـا وآخر سيئًـا ، وهذا الذى لا خير فيـه أمثـل حـالا وأقل ذمّا من آخـر ينهى عن تعـلُّم الخير ويصدّ عنـه ، ولـو لم ينـه عن الشّـر إلا من ليس فيـه منـه شئ ولا أمر بخيـر بعـد النّبى صلـى الله عليه وسلّمن وحسبـك بمن أدّى رأيـه إلى هـذا فسـادا وسوء طبـع وذم حـال .

وبالله تعـالـى التـوفيـق .

❖❖❖

تمَّ الكتاب والحمد للّه وحده وصلاته وسلامه على أفضل خلقه سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وعترته الطاهرين أبدا إلى يوم الدين.

تبويبات الكتاب وفصوله

□ التَّعريف بالكتاب ومؤلفه ٣
□ تقديم المؤلف ١١
□ فصل فى مداراة النُّفوس ١٣
□ باب عظيم من أبواب العقل والرَّاحة ٢٠
□ فصل فى العلم ٢٤
□ فصل فى الأخلاق والسِّير ٣٠
□ فصل فى الإخوان والصَّداقة والنَّصيحة ٤٠
□ فصل فى أنواع المحبَّة ٥٥
□ فصل فى أنواع صباحة الصُّور ٦٢
□ فصل فيما يتعامل به النَّاس فى الأخلاق ٦٤
□ فصل فى مُداواة أدواء الأخلاق الفاسدة ٧٨
□ فصل فى غرائب أخلاق النَّاس ١١٣
□ فصل فى مطامع النَّفس وعلاجها ١١٨

* * *